الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداني بعابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٥٢٣٦٩ / ٥٦٣٦٩

العدد ٣٦٨ | الثلاثاء ١١ من صفر سنة ١٣٦٥ — ١٥ من يناير سنة ١٩٤٦ | السنة الثامنة

فهرس العدد

رجال عرفتهم :

أسد الجزيرة

أسد الجزيرة العربية وحاميها هو مليكها عبد العزيز آل سعود، وهو رجل عصامي كوّن نفسه، وبنى ملكه على قواعد من الحزم والعدل والرحمة بعد أن فتح الجزيرة كلها بسيفه وبسط عليها سلطانه.

وقد نشأ في نجد كما ينشأ البدو، وركب الخيل والجمال، ويتقلد السيف دفاعاً عن الحق والأهل والعشيرة، واشتهر بهيبته وقوته وبقواده... وقد راقب حال الجزيرة عن كثب وما تفشى فيها من الفوضى والاضطراب أيام حكم الشريف، فقرر أن يخلصها من هذا الحكم.

والحق أن الفساد في عهد تلك الدولة استشرى، فالأمن مضطرب... حتى إن الحاج ما كان يأمن على نفسه أو ماله، وويل ثم ويل من كان يزمع زيارة المدينة، فإن السلب والقتل كانا مترصدين له في الطريق... حتى إنه قيل (إن من يخرج وأنه من الخروج فهو لن يعود له) كما انتشرت الرشوة والمحسوبية والجرائم.

عرف عبد العزيز كل هذا ولمسه بنفسه ورآه بعينيه فآلى على نفسه أن يخلص الجزيرة من هذا الرعب والفساد، وينشر فيها حكم الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم).

وأخذ يجمع قومه ويعدهم ويحضهم على الجهاد، ويدربهم على استعمال الأسلحة المختلفة التي مدته بها جهات عديدة. فجيش جيشه وتحرك به من نجد متجهاً إلى الحجاز، وفي طريقه إلى مكة أخضع كل القبائل ويقاتلهم حتى وصل إلى مكة فحارب في شعابها ووديانها حرباً دامية حتى استولى على أم القرى... وعندئذ دخل المسجد هو وأصحابه

مكبرين مهللين ، بعد أن حرموا من دخولها أعواماً ، فصلى لله شكراً وطاف بالبيت العتيق ، وعاهد الله على أن ينشر العدل والأمن في أنحاء الجزيرة .

وسارت بعد ذلك جيوشه الظافرة إلى جدة والمدينة وجميع أطراف الجزيرة فاستولت عليها جميعاً .

الحكم :

قلب عبد العزيز طرفه في ملكه الشاسع الجديد ، ولم تداخله نشوة الظافر وغروره ، بل أحس تبعة الحاكم ... الحاكم الذي يريد أن ينشر السلام والأمن والعدل في بلاد شاسعة كلها صحراء وجبال ... بلاد لا تنبت شيئاً ولا تصنع شيئاً ، بل تعتمد على ما يأتيها من مال ومعروض في مواسم الحج ، ولا وسيلة بها للنقل إلا الجمل .

وأمر أن يكون الحكم فيها لكتاب الله ، وطارد المجرمين وعاقبهم بلا رحمة ، وولى أبناءه وأقاربه إمارة البلاد ... وأنشأ مجلس الشورى ... الحكومة . ومد شبكة المواصلات التلغرافية ... البلاد ، وكذلك أدخل التليفون والسيارات وجعلها وسيلة المواصلات الأولى .

واتخذ له مقرين للحكم : أحدهما بالرياض عاصمة نجد ، والآخر في مكة عاصمة الحجاز . أما في الصيف فهو ينتقل عادة إلى الطائف ، كما اتخذ له علماً يظل تحت إمارته وسطوته ؟ فهو سيف كتب أعلاه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وراح ينشر الدعاية للحج ويهتم بسلامة الحجاج حتى يوفر له المورد المالي ، الذي مكنه من إقامة دعائم الحكومة وتنفيذ الإصلاحات الضرورية ، وأنشأ العلاقات السياسية مع الدول المختلفة ، ولكنه حرم على غير المسلم أن يقترب من مكة أو المدينة حرصاً على شعائر الدين وحرمته .

البترول :

وأراد الله أن يفرج كربته لما اكتشف الأمريكيون منابع البترول في شمال الجزيرة ولم يتردد عبد العزيز في الاتفاق على استخراج البترول .

وهكذا عمرت الخزانة وتدفق الخير وعم الرخاء .

طويل العمر :

والملك عبد العزيز رجل مسلم مؤمن بكل ما في هاتين الكلمتين من معنى وقوة ، فهو لا يعرف إلا الحق ، ويعيش في بساطة طبيعية محببة ، لا يلبس إلا الفضفاض ، ويحتفل ... ويأكل بالطريقة العربية كما تعود .

وهو لا يسمح لأحد أن يدعوه صاحب الجلالة ... بل يناديه أهله « يا عبد العزيز » . أما رعيته فتداولوا لقب « يا طويل العمر » .

ويستطيع كل شخص من رعيته أن يقابله ويرفع إليه شكواه ... منصفه حتى من نفسه ومن أقرب المقربين إليه . لا يعرف في الحق كبيراً ولا صغيراً .

... صفع أحد أمرائه رجلاً على وجهه . ... الرجل شكواه إلى طويل العمر فقرر أن يصفع الرجل الأمير ثم عزله من إمارته .

وهو لا يشرب الدخان ولا الخمر إطلاقاً ، وقد حرم التدخين في أول حكمه . أما الآن فقد أبيح . لكن من يشرب الخمر يقام عليه الحد .

الزعيم السياسي :

إن هذا الملك البدوي الطويل ، الذي لم يدخل جامعة ولا تتلمذ على أساطين السياسة ، هو بلا شك داهية سياسي ، فهو يعرف ببديهته وفطرته السليمة وحنكته كيف يقود سفينته إلى بر السلام دائماً . وهو مساوم بارع صريح يكسب من مساومته أكثر ما يمكن لبلاده .

ومما لا خفاء فيه أن هناك منافسة شديدة بين إنجلترا وأمريكا في المملكة العربية السعودية ، وهو يستفيد كل الاستفادة من هذه المنافسة ، ويعرف في كل حالة كيف

يحفظ استقلال بلاده ، وهو يوازن بين المتناقضين ثم يربح دائماً .

وإنك لتحس كيف استغل ذلك التناقض . فالحجاز هو البلد الوحيد الذي مازالت العملة فيه هي الجنيهات الذهبية ، وهي تتدفق على أسواقه كالسيول . وكلنا يذكر كيف أصر منذ عامين على أن تكون نقود الحجاج من الذهب ، وكيف اضطرت الحكومة الإنجليزية أن تعطي مصر والبلاد الإسلامية ما يلزم لحجاجها من الذهب .

وإنك لتجد أيضاً ذلك السيل المتدفق من الأرز الذي ترسله أمريكا، وخاصة الدقيق الأبيض والسيارات والطائرات.

وهو يعرف كيف يتخير الكفة الراجحة في أشد الحالات حلوكة وغموضاً ؛ فعندما اشتدت الأزمة الدولية بين الديموقراطيات والمحور التي تسير أساطيله في البحر الأحمر وتحتل إحدى دوله الحبشة .. أخذ يفكر ويتدبر ، وفي ذات ليلة اشتد به التفكير وسهر ... وصلى ... للقرآن ، وبعد أن صلى الفجر جمع أمراءه وأعلمهم أنه قد قرر أن يقف بجوار الدول الديمقراطية .

وهكذا تخير الكفة الراجحة .

عبد العزيز الرجل :

رأيته لأول مرة في حياتي في اليوم السادس من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ واقفاً على عرفات في المكان الذي كان يقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرأيته رجلا طويلا نحيلا يلبس ملابس الإحرام البسيطة . أما وجهه فهو طويل نحيل ينتهي بلحية مسنونة ، وتشوبه السمرة البدوية، وتظهر فيه علامات القوة والحزم . أما نظراته فثاقبة توحي بالثقة والاطمئنان ، كما توحي بحسن التفكير والفطنة الشديدة والذكاء الفطري .

وعند الغروب وقف خاشعاً رافعاً يديه إلى السماء ضارعاً مبتهلا ، وكانت تظهر عليه علامات المرض والضعف .

وفي يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٣ تشرفت بمقابلته في استراحته بمنى حيث ينزل أيام عيد الأضحى . فوجدته يلبس جلباباً من القطن عليه عباءة سوداء ، ويغطي رأسه بكوفية بيضاء من القطن الأبيض مزينة بنقوش حمراء ، وفوق رأسه عقال مقصب ، وكان يجلس في بساطة وهيبة على كنبة كبيرة وثيرة . واستقبلنا هاشاً باشاً وأخذ يتحدث في بساطة وتؤدة ويبرات صوته ضعيفة وكأنه بطيئة إلا أنها قوية ، وهو يسأل كل إنسان عن حاله ويزوده بنصائحه وهو يتكلم العربية الفصحى في لهجة نجدية لطيفة .

وفي مجلسه تتجلى الديموقراطية الحقة ، فالكل إخوانه وأحبابه وضيوفه ، وتقدم لك في مجلسه القهوة العربية (بن) ثم الشاي ، ولا بد لك أن تشرب في حضرته .

ويبدو لك كرمه فيما يخلعه من خلع سنية على كبار زواره ، وهو كريم غاية الكرم ، ويروى عنه أنه كان في رحلة من مكة إلى الرياض ، وهي رحلة يجتازها أهل البادية ... ، إذ تدفق عليهم فيها جيرانه ويشعرون بالكثير من لطفه وبره ، ورأى أحد أولاده الصغار ، وكان في صحبته ، بدويا يحمل [illegible] فيه ، فنادى الملك الأعرابي وأفهمه رغبة ولده فنزل له الأعرابي عن قربته . ثم سأله الملك :

« أين تريد » فقال الأعرابي :

« والله يا طويل العمر أريد هذه السيارة » وأشار إلى سيارة الملك .

فلم يتردد عبد العزيز ، بل نزل منها وأهداه إياها وركب سيارة أخرى .

وهكذا عرف هذا الملك كيف يرضي رعيته ويحببهم في حكمه .

وإذا دخل عليه أحد مجلسه وشكا إليه سوء حاله أمر

على هامش الحركة التعليمية :

خطرات

قامت مصر في العام الماضي حركة تعليمية قوية شاملة ، لفتت الأنظار إلى الأمور المتصلة بتربية النشء ، وحولت الاهتمام إلى سياستنا التعليمية ، إلى أين تتجه ، وكيف نحتاط في رسمها ، وما أنفع الطرق التي يجب أن نسلكها لنرقي الجيل الجديد بخير تربية ، وننهض بالبلاد نهضة قوية شاملة .

فهذا وزير المعارف قد توفر على دراسة حالة المدارس ، ونظر نظرة فاحصة في المناهج ، واستعرض مختلف المراحل ، واتجه في هذا العام الدراسي اتجاهاً جديداً يختلف عن الاتجاه الذي كان سائداً قبل توليه وزارة المعارف . وحين ناقشه النواب وأهل الرأي ذكر لهم أنه لا يزال يدرس ، وأنه لم يقطع برأي نهائي بعد ، ووعد بأن يعرض ما يستقر عليه رأيه بعد الفحص والدرس ، على الأمة تبدي رأيها فيه .

وبعد ذلك رأيناه يجمع اللجان ، ويقلب فيها مختلف الآراء ، ويستمع لمختلف الاتجاهات ، ويزن حجج كل فريق ، ويبحث ذلك كله في ضوء ملاحظاته الشخصية ، وخبرته العملية التي اكتسبها من اتصاله بالعمل في المعارف وزياراته المدارس ، ومناقشاته مع أولياء الأمور ونواب البلاد ورجال التعليم ، وكأني به وقد رسم لنفسه خطة عول على أن يسير فيها ، ورسم لنفسه سياسة اطمأنت إليها نفسه .

رجحنا ذلك حين رأيناه قد استصدر مرسوماً بإنشاء المجلس الأعلى للتعليم ، ولم يمض على صدور المرسوم طويل حتى حدد موعداً لجمع المجلس لأول مرة ، وافتتحه بالفعل بكلمة تبين منها أنه سيعرض سياسة مستقرة ، وقد رأينا المجلس قد اتخذ الخطة الحكيمة التي يجب اتباعها في مثل هذا الشأن من تأليف لجان صغيرة لدرس مختلف النواحي . وها هو ذا يسافر إلى السودان ليفتتح أول مدرسة مصرية في هذا القطر الشقيق الحبيب ، ويتحدث فيها بالاتجاهات التربوية الحديثة وبما من شأنها ، ويعلن اعتزامه

له بما يلزم من الدقيق والدهن وأعطاه من ماله الخاص ما يرد غائلة الدهر عنه .

ولذلك يعتبره أهل الجزيرة ملكاً وأباً وزعيماً .

عبد العزيز والوحدة العربية :

وهو يعطف أشد العطف على الوحدة العربية وآمال كل العرب وأمانيهم ، وطالما نادى بذلك في مجالسه في مواسم الحج ، وكثيراً ما جمع حوله رؤساء الوفود وذوي المكانة في البلاد المختلفة العربية واستفسرهم عن شئون بلادهم وحثهم على التآخي والاتحاد .

وهو يعتبر موسم الحج مؤتمراً عاماً للمسلمين ويحرص على حضوره ويتذاكر معهم شئونهم وآمالهم وآلامهم .

أما موقفه من فلسطين فهو واضح غاية الوضوح ، وصريح كل الصراحة ، وهو يصر على جعلها عربية لحماً ودماً . يشهد بذلك خطابه للرئيس روزفلت الذي نشر أخيراً .

أما مصر فهي حبيبته ، وفاروق الملك هو أخوه الذي يحتل من كل قلبه أعز منزلة وأكرم مكان .

وهو لم يخرج من بلاده قط إلا إلى مصر في الشتاء الماضي ، وهو يعرف من شئونها كل شيء ، ويعرف أكثر رجالها ، ويثق كل الثقة في عبد الرحمن عزام باشا ، حتى إنه لينزله ضيفاً خاصاً عليه في قصره ، ويعطيه أقرب الحجرات إليه ، ويمنحه من الود والمحبة الشيء الكثير .

وهو بجانب ذلك حريص غاية الحرص على استقلال بلاده والبلاد العربية ، لا يفرط في ذلك ولا يتزحزح عنه قيد أنملة .

محمد عبد الفتاح زكي

على أن يسير على مقتضاها في جميع المدارس التي تحت إشرافه .

* * *

وهناك إلى جانب هذه الحركة الوزارية التي دعت إليه جمعية المعلمين ، وبحثت فيه سياسة التعليم ، وانتهت فيه إلى قرارات أبلغتها وزارة المعارف ، ورجت أن يكون لها نصيب من عناية القائمين بوضع السياسة التعليمية الجديدة .

وفي الشهور الماضية شهدت مصر حركة قوية لم يسبق لها نظير ، وهي اختيار عدد كبير من نوابغ الخريجين ومن الأساتذة التابعين للمعهد في بعثات علمية وعملية إلى مختلف أنحاء العالم ، إلى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا ، وقد زاد عددهم على الثلثمائة ، وقد سافر معظمهم بالفعل ، وقد شرفهم مليك البلاد بتكريم متفطع النظير في حفل ملكي عظيم ، خطب فيه وزير المعارف خطبة ضافية .

وقد طلعت علينا الأهرام في الأسبوع الماضي بحديث قيم أدلى به حضرة صاحب السمو الأمير محمد علي توفيق ، تناول فيه « العلم والتعليم والنهضة العلمية في مصر » وأشار فيه إلى هذه البعثات واستحسنها وأثنى على مفكريها ، ولكنه لفت النظر إلى أمر آخر عظيم الأهمية ، ألا وهو أن العلم لا وطن له ، وأن سموه ينصح بضرورة استقدام عدد من فطاحل علماء الغرب ، للعمل في مساعدة ، كما أشار بضرورة توجيه الشبان إلى الهندسة والكهرباء والميكانيكا والكيمياء ، فإن هذه العلوم وأمثالها قد أصبحت عماد المدنية الحديثة .

* * *

من هذا العرض يتبين صحة ما قلناه في صدر هذه الكلمة من أن الاهتمام بشئون التعليم كان من الظواهر البارزة في العام الماضي ، وينتظر أن يكون كذلك في عامنا الجديد ، ولذلك رأينا أن ندلي هنا ببعض ملاحظات وخواطر ، قد يكون لها بعض الأثر في هذه الحركة المباركة .

وأول ملاحظاتنا خاصة بتكوين المجلس الأعلى للتعليم ، فقد ضم إلى عضويته كل من تولى وزارة المعارف ، وهذا الاختيار في نظرنا قد يكون فيه شيء من الإسراف ، وكنا نؤثر أن يختار الأعضاء على أساس تمثيل مختلف وجهات النظر ، بمعنى أن يطلب من كل حزب من الأحزاب السياسية التي تتولى الحكم أو تشترك في مختلف الوزارات التي تقوم في مصر أن تختار من بين من تولوا وزارة المعارف منها عدداً مناسباً يمثلها في هذا المجلس ، كما يختار من بين من تولوا وزارة المعارف من الوزراء المستقلين بعض من كانت لهم آراء يعتد بها في هذا المضمار .

ونحن كنا نود أن تمثل الهيئات التي تعبر عن آراء المعلمين في هذا المجلس ، فهناك جمعية المعلمين ، وإلى جانبها رابطة خريجي معهد التربية ، وكذلك رابطة التربية الحديثة ، فكان الأولى أن يختار من هذه الهيئات أو يطلب إليها اختيار من يمثلها في هذا المجلس .

مثل هذا الإجراء كان يضمن تمثيل وجهة نظر كل حزب سياسي أو طائفة من طوائف رجال التعليم ، كما أن ذلك كان يحفز هذه الطوائف وتلك الأحزاب إلى أن تجعل من برامجها دراسة الأمور التربوية دراسة وافية ، وتكون لنفسها فيها سياسة واضحة ، فقد رأينا في العهد الأخير حين كانت السياسة التعليمية في انجلترا محل دراسة وبحث أن تقدمت كل طائفة وكل حزب بآراء واضحة مدونة مؤيدة بالحجج ، وكان في استعراض كل تلك الآراء متعة عقلية وفائدة كبرى لكل من اطلع عليها .

* * *

والأمر الثاني الذي خطر لنا ونود أن نلفت النظر إليه، هو أنه من المستحسن، في مثل الظروف التي نحن فيها، أن نبذل معظم الجهود في إصلاح الأساليب القائمة، وفي العمل على خلق روح جديدة قوية ملهمة، بدلا من أن نبذل جهودا كبيرة في إحداث تغييرات كثيرة في النظم وفي الأوضاع. فالعبرة في نظرنا بالأساليب المتبعة التي تتناول الموضوع والتي هي من صميم التربية. أما النظام نفسه فقد يكون أمرا شكليا ثانويا لا يستأهل إضاعة الوقت والجهد في تغييره.

ثم إننا ننصح بألا يحدث أي تغيير جوهري قبل أن يجرب في نطاق ضيق، وتستبين محاسنه ومساوئه، ويوجه العناية إلى استئصال ما به من عيوب، وتحسينه بقدر الإمكان، وعند ذلك فقط يصح أن يعمم.

ويقتضي ذلك بطبيعة الحال أن نعنى على الدوام من الآن فصاعدا بجمع الإحصاءات ودراستها واستخلاص دلالاتها، وكذلك يحسن في مثل هذه الوزارة إجراء الاستفتاءات من آن لآخر لنعرف رأي رجال التعليم وأولياء الأمور وقادة الفكر في معظم المسائل والمشاكل والتعديلات التي تجري والمشروعات التي يراد تنفيذها، وكذلك المشروعات التي تنفذ.

بمثل هذه الوسائل نضمن قيام كل تعديل أو تغيير على أساس علمي سليم، وينتهي عهد الارتجال، ويدرك الناس أن الأمر جد رهيب، وأنه لا يجوز فيه الأخذ بفكرة عابرة أو رأي فطير، فهو ليس بالعبث الهين، وإنما هو متعلق بمستقبل أمة بأسرها وبسعادة الجيل القادم.

***

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة، وهي ضرورة مراعاة المرونة في كل نظام، وتجنب القواعد الصارمة والخطط الجامدة، فإن من المصلحة أن يكون في استطاعتنا دائما أن نحوّر في خط سير التعليم تبعا لما يظهر فيه من حسن استعداد وتقدم من جهة، أو من ضعف في الاستعداد وتخلف من جهة أخرى، فلو أن كل عقل قدم له ما يناسبه على الدوام لكان الإنتاج جيدا باستمرار، ولاطرد تقدم التعلم في كل مرحلة من مراحل تلقيه.

***

وأخيرا نعود للنقطتين الهامتين اللتين أشار إليهما سمو الأمير في حديثه، وهما الاهتمام بالعلوم العملية التي هي دعامة المدنية الحديثة. وفي رأينا أن خير مظاهر هذا الاهتمام هو تشجيع البحث العلمي بكل الوسائل الممكنة ومنها إرسال البعثات من الذين أتموا دراساتهم بنبوغ، وأظهروا استعدادا لمزاولة البحث، ومنها تشجيع الأساتذة القائمين بالبحوث بالفعل، وذلك بتسهيل مهمتهم بشتى الوسائل، وتشجيعهم بكل الطرق وفي كل المناسبات.

وكان من أهم المظاهر لذلك التشجيع هو الأمر الثاني الذي أشار إليه سمو الأمير، ألا وهو العمل على استقدام طائفة من العلماء الباحثين من الطراز الأول، وانتخاب مجموعة من الجديرين البارزين من الطلاب والمدرسين للعمل تحت إرشاد هؤلاء العلماء في البحث العلمي الصحيح ليكتسبوا منهم خبرة بأساليب البحث الصحيحة، ومرانا على طرائقه بحيث تترقى لديهم المواهب التي يلمحون بها النقط الجديرة بالبحث، والملكات التي تمكنهم من رسم خطط البحث التي تكون أقرب إلى النجاح، فلا يمضي زمن طويل حتى نجد من أبناء شبابنا من يستطيعون اقتفاء أثر هؤلاء الفحول من العلماء، فيحلون محلهم فلا نشعر بفراغ كبير إذا ما فارقنا هؤلاء العلماء الذين استقدمناهم وعادوا إلى بلادهم.

أحمد عبد السلام الكرداني

جريمة نكراء

في مساء السبت الأسبق وقع حادث إجرامي مروع ذهب ضحيته رجل من رجال السياسة المعروفين هو المغفور له أمين عثمان باشا . وقد أعاد هذا الحادث إلى الذاكرة مقتل الزعيم السياسي الطيب الذكر المغفور له أحمد ماهر باشا ولم يمض عليه إلا قرابة عام .

وتكرر هذه المآسي في هذا الزمن القصير خليق أن يقنع المتبين بأن هناك عوامل في حياتنا السياسية تدعو لهذا الهوس الإجرامي ، وهو خليق بأن يحملنا على التفكير الجدي في اقتلاع أسباب هذه الموجة الإجرامية التي تهدد حياة كل رجل يشتغل بالسياسة بغض النظر عن حزبه ومذهبه السياسي .

ومن المقطوع به أن هذه النزعة الإجرامية محصورة في دائرة محدودة هي دائرة الشبان ذوي الأعصاب [illegible] إذ لا يمكن أن يجول بخاطر رجل متزن أن يحمل [illegible] ويقدم على قتل رجل لأنه يخالفه في رأي أو لأنه [illegible] في الأمور العامة بغير مقياسه . وإنما يجوز هذا على [illegible] مختل الأعصاب مضطرب التفكير لا أثر للوجدان [illegible] في حياته ، فمن السهل أن يقع مثل هذا الشاب فريسة نزوات طائشة ويندفع بلا روية ولا تبصر في هاوية الإجرام والخطيئة .

وأمثال هؤلاء الشبان الشاذين يعرفون في الأوساط التي يعيشون فيها بسيماهم ، فهم في الغالب يعتزلون الجماعات ويتحرجون من مشاركة رفقائهم في ألعابهم وحياتهم الاجتماعية ، وهم متمردون لا يحترمون النظم والأوضاع ، متشائمون ينظرون إلى كل ما يقع عليه بصرهم بمنظار أسود . وهم بأطوارهم على ذوات نفوسهم وبعودهم من أمثال رفاقهم يعيشون في أحلام وخيالات لا يستسيغون التفكير المنطقي المستمد من الواقع والمحسات . فهم في الواقع مرضى خليقون بأن يوضعوا في المصحات أو تنشأ لهم معاهد خاصة يعالج فيها شذوذهم وتروض فيها طبائعهم المنحرفة .

ولكنهم هنا يعيشون كما يعيش الناس ويتصرفون بمطلق حريتهم كغيرهم من الشبان العاديين .

ولو أن الجو المحيط بهم عادي خال من الزعازع والأعاصير لكان الأرجح أن يقف شذوذهم عند حد العبث بحياتهم الخاصة .

ولكن الجو الذي خلقته الحرب والاضطراب الذي خلقه النزاع السياسي العنيف القائم في هذه البلاد ، هذا الجو قد أتاح لشذوذهم ميداناً جديداً يعيثون فيه ، ويخوضون في مشاكله بعقولهم المختلة وأذهانهم المكدودة وأعصابهم المختلة المريضة .

ومما يؤسف له أن الخصومة السياسية لدينا قد جاوزت كل حدود الاعتدال ، وأن كل فريق يصطنع في محاربته على خصومه أعنف الأساليب ، وأن الخلاف السياسي قد وصل إلى [illegible] سباب متبادل لا هوادة فيه . فلا غرابة إذا كان لهذه الحملات صداها في تلك النفوس الهوجاء الغريرة ، ولا عجب إذا أنتجت مثل هذه الجرائم المروعة التي نتجرع اليوم غصصها .

والسبيل الصحيح لإطفاء نار هذه النزعات الإجرامية هو أن يصفو الجو بين الزعماء ، وأن يكون الخلاف بينهم جدالاً متعقلاً هادئاً رزيناً ، وألا يحول تباين الآراء دون معرفة أقدار الرجال وإنزالهم جميعاً ما هم خليقون به من الاحترام .

ولعل من الخير العمل على إبعاد الشباب الناشئ عن دائرة الحياة السياسية العملية ، وقطع اتصال الأحزاب بالطلبة ، وترك الجو الدراسي في دائرته البريئة ، وعدم الزج به في خصومات رجال السياسة .

وكم نود أن تكون هذه الحادثة الأخيرة فرصة لتقارب المتنازعين وإصلاح العلاقات بينهم ، وألا يجعل منها بعض قصار النظر فرصة جديدة للتقاطع وإيقاظ الفتن النائمة وتحريك الأحقاد الكامنة .

(. . .)

١٢ - من الأدب العربي

أخلاق السادة

من الأخلاق التي لفتت أنظار العرب فأكثروا فيها كلامهم وصاغوا منها أدبهم «خلق السيادة» وهو معنى غامض صعب التعريف والتحديد يختلف كثيراً باختلاف البيئة، وباختلاف الحياة الاجتماعية، وباختلاف الصبغة التي تغلب على الشخص والجماعة من حب المجد، وزهد فيه، ونحو ذلك.

فإذا نحن استعرضنا أركان السيادة في الأدب الجاهلي وجدناها الكرم والشجاعة، فيقول عامر بن الطفيل:

إني وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي
أذاها وأرمي من رماها بمنكب

والخلاصة رأيه في السودد أنه يقوم على قبيلته ويحميها بالمآثر ويبذل نفسه في الدفاع عنها، فليست السيادة في نظره مجرد الشجاعة، ولكنها الشجاعة في سبيل القبيلة.

وقالت ابنة حاتم الطائي تصف أباها: «إن أبي سيد قومه، كان يفك العاني ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ولم يطلب إليه أحد حاجة فرده» فمثلت سيادته في الشجاعة والكرم.

وتقرأ المفاخرات بين السادة في الجاهلية فتراها يدور أكثرها حول المباهاة بالكرم والشجاعة.

وظلت هاتان الصفتان هما دعامتي السيادة في الإسلام وإن لوّنتهما بعض الألوان الأخرى التكميلية، فيروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «السيد: الجواد حين يُسأل، الحليم حين يُستجهل، البار بمن يعاشره».

وقيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ فقال: «ببذل الغرم، وترك المراء، ونصرة المولى» فأضيف إلى الكرم والشجاعة ترك المراء، وبعبارة أخرى الترفع عن الصغائر.

وعدّ في العصر الأموي من أسود الناس الأحنف ابن قيس وسلم بن قتيبة ومحمد بن القاسم؛ فأما الأحنف فأساس سيادته الشجاعة والكرم والحلم، وقد رشحه زياد ابن أبيه ليتولى ثغر الهند فلم يرض معاوية بذلك وحفظ عليه عدم انضمامه إلى جيش عائشة ومناصرته علي بن أبي طالب، فقال فيه زياد: «إن الأحنف بلغ من الشرف والسودد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل».

وعدّ من أهم أسباب سيادة سلم بن قتيبة جرأته وشجاعته، فقال بعضهم: «كنا نعرف سودد سلم بأنه كان يركب وحده ويرجع في خميس» أي خميس أميراً.

ومحمد بن القاسم فتح السند والهند وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة فقال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤدداً من مولد!

وأحياناً كانوا يلاحظون في «السيد» لين الجانب وسعة صدره للناس في أن يحبوه ويقلدوه. قال رجل من العرب: «نحن لا نسوّد إلا من وطئنا رحله (يريد يجعلنا في حوائجنا) ويفرشنا عرضه (يريد أنه لا يضيق بنقدنا له وعيبنا عليه) ويملّكنا ماله» وكما قال المقنع الكندي:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وليسوا إلى نصري سراعاً وإن هم
دعوني إلى نصر أتيتهم شدّا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وأحياناً يلحظون في السيادة بعد النظر وقوة الفكر وسداد الرأي ، وهذا ما لحظوه أيضاً في سيادة الأحنف ، فقد كان من أسباب مجده الرأي المصيب والنظر الصادق ؛ وقال الكميت :

رَفَعْتَ إليـك وما ثُغِّرَتْ (١) عيونٌ مستمعٍ وناظرْ

ورأوا فيك وفيك في المهد النهى ذات البصائر

وقد لحظوا — أيضاً — أن السادة لا يسودون جميعاً بخصلة واحدة ؛ فقد يسود أحدهم بصفة ويسود آخر بغيرها تبعاً للشخص والظروف التي حوله ، فقالوا — مثلاً — « ساد الأحنف بحلمه ، وساد مالك بن مسمع بحب العشيرة له ، وساد قتيبة بن مسلم بدهائه ، وساد المهلب بن أبي صفرة بهذه الخلال كلها » .

وفي بعض الأوساط عد أكبر ركن للسيادة اصطناع الرجال ، وهو ضرب من الكرم ، وهو أن يستخلص من الناس ببذل العطاء لهم وقضاء حوائجهم رجالاً يجتمعون حوله ويصدرون عن رأيه ، وفشا هذا في العصر العباسي وخاصة عند البرامكة ، فقد كان سياستهم في إسداء البر للناس وتكوين الأشياع والأتباع « رووا أن يحيى بن خالد البرمكي دعا ابنه إبراهيم يوماً — وكان يسمى دينار آل برمك لجماله وحسنه — ودعا مؤدبه ومن كان يضم إليه من كتابه وأصحابه فسألهم : ما حال ابني ؟ قالوا : قد بلغ من الأدب كذا ونظر في كذا وكذا (من العلوم) قال : ليس عن هذا سألت . قالوا : قد اتخذنا له من الضياع كذا ومن الغلة كذا . قال : ولا عن هذا سألت ، إنما سألت عن (سيادته) وبعد همته ، وهل اتخذتم له في أعناق الرجال منناً وحببتموه إلى الناس ؟ قالوا : لا . قال : فبئس العشراء أنتم والأصحاب ، هو والله أحوج منه إلى ما قلتم . ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ، ففرقت على قوم لا يدري من هم » .

ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم فرأى ابنه العباس يتخذ الصنائع ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال ، فقال في المعتصم :

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال

قلق بكثرة ماله وضياعه حتى يفرقه على الأبطال

فساد المعتصم وضاع العباس .

ووجد في الإسلام من غلبت عليه النزعة الدينية وأمعن في فهم قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فربط هذا بالسيادة وجعل السيادة في التقوى . قال ابن الكلبي قال لي خالد القسري : ما تعدون السؤدد ؟ قال : « أما في الجاهلية فالرياسة (يريد الرياسة على القبيلة) وأما في الإسلام فالولاية (يريد ولاية أمور المسلمين بالخلافة أو ولاية مدينة أو إقليم) ، وخير من ذا وذاك التقوى » .

(يتبع)

أحمد أمين

إيرادات ترتفع وجماهير تلح

أمام الإيرادات الضخمة وإلحاح الجماهير اضطرت سينما رويال أن تمد عرض فيلم العصر الذهبي أسبوعاً ثالثاً . لأنها لم تر إقبالا على فيلم مصري بمثل هذا الإقبال الشديد من الجماهير المتدفقة . فهاهي تحية كاريوكا تثير دهشتنا بروعة رقصاتها وتمثيلها القوي ، ومحمود ذو الفقار يتنقل ويحلق بالخيال إلى الأحلام في أغانيه العذبة التي تلحنها الشاعر الفنان الرقيق عبد الله الخضير ، وزكي رستم وزينب صدقي والبيحي يقفزون إلى قمة المجد بتمثيلهم الحي الرائع ، وبشارة واكيم وشكوكو يسيلان الدموع بتمثيلهم الكوميدي اللذ .

نهانينا للمخرج الجرىء الأستاذ حسين فوزي وللشركة أفلام الشباب التي تعمل للشباب في القرن العشرين

(١) يقال ثغر الغلام إذا سقطت أسنانه الرواضع

بين الصراحة والنفاق

من الشعراء الإنجليز شاعر أسكتلندى ظريف يمتاز بالشعر البلدى الاسكتلندى اللطيف الروح ، وهو روبرت برنز ، وقد أعجبنى منه بيتان أرددهما دائماً ما بينى وبين نفسى وهاك الترجمة الحرفية المصرية :

« ليت أن الله فى الجنة أعطانى عطية :

أن أرى نفسى كما ينظر إخوانى إليه »

وهو يعبر فى هذين البيتين عن شعور إنسانى عام أو شعور يكاد يكون عاما ، فإن الناس يتوقون إلى معرفة رأى الغير فيهم وفى تصرفاتهم . وهناك مظاهر شتى لهذا الشعور ، وإذا شاء أحد أن يكشف بنفسه قوة ميل الناس إلى معرفة رأى الغير فيهم فليذهب إلى أحد أصدقائه وليسأله مبادراً :

« هل عرفت ما قال فلان عنك [illegible] ذلك الصديق سوف يلتفت إليه بكل شوق ليعرف منه ماذا قال ذلك الفلان عنه .

وأعتقد أن اختراع المرآة لم يكن سوى وسيلة لتحقيق رغبة الإنسان فى معرفة كيف تبدو صورته فى أعين الغير . وإلا فما هو القصد من اختراع هذه الآلة التى لا وظيفة لها إلا أن ترينا صورة أوجهنا ؟ فالرجل ينظر كل صباح فى المرآة قبل خروجه لكى يعرف الشكل الذى سيطلع به على الناس ويطمئن إلى أنه سيقع منهم موقعاً حسناً . وأما المرأة فإنها تحمل المرآة معها فى حقيبتها لكى تتحقق بين حين وآخر من أن شكلها الذى اطمأنت إليه منذ ساعة لا يزال على عهدها به يسر الناظرين جميعاً .

ولكن إلى جانب هذه الحقيقة توجد حقيقة أخرى تناقضها كل المناقضة . فقد كان المنتظر من الإنسان أن يهتم بمعرفة آراء الناس فيه لكى يصلح نفسه ويجعلها مقبولة عند الغير بقدر إمكانه . فإذا هو استعمل المرآة ورأى أن مظهره ليس كما ينبغى لذلك كان عليه أن يسعى فى تعديل ذلك المظهر حتى يحوز القبول عند من يراه . وليس من العسير علينا أن نجد تعليلاً لهذا المنطق البسيط ، فالإنسان اجتماعى ولا يمكنه أن يعيش إلا مع بنى آدم ، ولا غنى له من أن يعرف رأيهم فيه ، وأن يحاول كل جهده أن يكون منسجماً معهم ، وأن يعيش بينهم فى أحسن حال ممكنة من التوافق والتفاهم . هذا هو ما كان المعقول والمنتظر . ولكن الواقع يناقض هذا مناقضة عجيبة ، فكل فرد تقريباً يُعجب بنفسه ويعتقد أنه مركز العالم . فإذا هو نظر إلى المرآة مثلاً لم ينظر إليها إلا بعينه هو ، وإذا لم يعجبه شىء فى مظهره عدله وأصلحه حتى يكون ذلك المظهر وفق هواه ، وليس معنى هذا أنه يكون وفق هوى الناس . فالمرآة لم تفد الإنسان كثيراً من هذه الناحية لأنها إنما تمثل الناس [illegible] أعينهم الخاصة ، وهذا هو السر فى [illegible] المرآة فى كل صباح ثم نخرج إلى أعمالنا راضين عن أنفسنا منشرحى الصدور بما رأينا . ولم نسمع عن أحد أنه كسر المرآة قبل خروجه من منزله لأنه استقبح شكل نفسه . فنحن عندما نريد معرفة رأى الغير فينا نشعر فى الوقت نفسه رأياً ثابتاً فى أنفسنا وهو فى الغالب الرضاء التام والإعجاب .

فإذا تعارض رأى الناس مع آرائنا لم نتردد فى أن نتهم آراء الغير وأذواقهم ، وقد يبلغ بنا الأمر إلى الخاصمة والعداوة انتصاراً لاعتقاداتنا فى أنفسنا .

أليس فى هذا شىء من التناقض ؟

ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة الدلالة على هذا التناقض العجيب فى الضمير الإنسانى . فقد وردت فى الأخبار قصص كثيرة عن بعض العظماء فى التاريخ الذين كانوا يتنكرون لشدة رغبتهم فى معرفة آراء الغير فيهم . فكانوا يرسلون الرسل لكى يندسوا بين الناس ليحملوا لهم أصداء

الأحاديث عنهم. وكان هؤلاء الرسل يتفننون في طرق التفسير بين الناس في منازلهم ومجالسهم وفي أنديتهم ومتاجرهم فيجمعون من كل ذلك بضاعة عظيمة القدر من الأقوال ويحملونها إلى السادة الذين أرسلوهم. وكانوا يصيبون من وراء ذلك خيراً كثيراً ويفوزون بالجوائز السنية مكافأة لهم على جهدهم.

ولكن المعجب أن الملوك كانوا إذا سمعوا هذه الأحاديث لم يهتموا بإصلاح ما يأخذه الناس عليهم، بل كانوا يرسلون في اليوم التالي إلى أولئك الذين تحدثوا عنهم ويوقعون بهم أشد العقاب على فضولهم والخوض في مثل تلك الأحاديث.

وليس الأفراد العاديون بأقل من الملوك في هذه الناحية من طباعهم. ويستطيع كل منا أن يلمس هذا بنفسه إذا شاء، فكثيراً ما يسألنا بعض الأصدقاء عن رأينا في بعض أعماله أو في كتاب ألفه، وقد يخدعنا بما يبديه من أنه يريد حقاً أن يعرف آراءنا في [illegible] فيمضي في إبداء رأيه في صراحة و[illegible] قد لا تخفى على إبداء النصح وأن عليه أن يؤدي تلك الأمانة كاملة، وينسى في أثناء ذلك أن صديقه الذي يسأله ما هو إلا إنسان، وأنه إنما طلب رأيه بشرط أن يكون رأياً موافقاً لرأيه هو. وهناك تقع الواقعة ويبدأ ميدان الخصومة. وقد يبلغ الأمر مبلغاً خطيراً لأنه قد ينتهي إلى زعزعة الصداقة وضياع المودة القديمة.

وأحكم الأصدقاء هم الذين يعرفون الطبائع البشرية حق المعرفة، فإذا سألهم صديق عن آرائهم في أعماله بادروا بإظهار وجوه المحاسن وأغفلوا وجوه المساوئ. والأعمال الإنسانية لا يمكن أن تخلو من المحاسن، فلا يمكن لأحد أن يتهمهم بالكذب الصراح وهم في الوقت نفسه يسرون صديقهم ولم يخسروا في ذلك شيئاً، بل إنهم ربحوا ربحاً عظيماً من زيادة المودة والثقة. وإذا سألهم صديق آخر عن رأيهم في كتاب ألفه بادروا بالثناء على مجهوده والتمسوا كل الحسنات فنشروها، وتحدروا إلى العيوب فبالغوا في التجاوز عنها وأغفلوها إغفالاً تاماً، وهذا يرضي الصديق بغير شك، بل هذا هو الذي كان ينتظره الصديق في أغلب الظن عندما سأل صديقه عن رأيه.

ولست أدري مع هذا كله هل كان الشاعر الاسكتلندي الظريف صادق النية عندما تمنى أن يهب الله له القدرة على رؤية نفسه كما رآه الناس، أم لقد كانت تلك أمنية شاعر متسرع لم يعرف حقيقة ما يتمناه! ولست أدري كيف تكون أحوالنا لو استطعنا أن نعرف رأي الناس فينا على حقيقته، أيكون ذلك مساعداً على تحقيق السعادة لنا أم يكون عاملاً على زيادة بؤسنا وشقائنا!!

وهناك سؤال آخر يخطر على البال في صدد هذا الحديث، فإذا فرضنا أن رأي الناس كان سيئاً في أعمالنا وفي آرائنا فأي الطريقين أجدر بنا، هل نساير رأي الناس [illegible] أنفسنا حتى نحقق رضاهم أم نسير على منهجنا [illegible] وإن كانت مخالفة لآراء غيرنا!!

لا شك أن القضاء كان قاسياً على هذه الإنسانية عندما حكم على بني آدم أن يعيشوا معاً وأن يحتاج بعضهم إلى بعض في كل شيء، وأن يكون كل فرد محتاجاً إلى معاونة الآخرين ورضائهم عنه. ولو كان بنو آدم مثل السباع يعيش كل منهم بمفرده ويصيد فريسته بغير حاجة إلى مساعدة أحد من السباع الأخرى لتغيرت كل أحوال الحياة، ولكان الناس في غنى عن كثير من المواقف الحرجة. وإنه لمما يزيد المشكلة تعقيداً أن بني آدم يمتازون عن سائر أنواع الحيوان بحب الثرثرة والدردشة والميل إلى إبداء الرأي وإن لم يكن عندهم آراء.

فكثيراً ما تجد الشخص يقذف بالآراء تدفقاً في شتى مسائل الحياة والسياسة والأدب وغير ذلك وهو مشغول بالأكل أو الشرب. وكثيراً ما يحلو إبداء الرأي حول

تحيـــة العاهلين

[تحية الشعر لحضرتي صاحبي الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق الأول في زيارتهما للعاصمة ......]

ماجت مواكبه ، ولاح لواؤه
ملكٌ تهلل في الوجوه لقاؤه
وتسابق الوادي إليه حفاوة   فلقاؤه قبل العيون جلاؤه
ابن السعود ! فيا لمصر موكب   سعد الزمان به وفاض هناؤه
لم تلق مصر المنيفة يوما كما
لقيته ، أو عز الحمى نزلاؤه
هذا الثرى الأبدي أصبح موطنا
لبني الرجال الوثابات وطاؤه !
يا حسنها في البشريات ! تحفك
روض البرية ... [illegible]
المجد والعز المنيع عقابه
والفضل والشرف الرفيع [illegible]

ويود بأيام الرضا معبقة
أن يشكر الوطن السعيد ضياؤه

* * *

يا طلعة البشرى ، تأرج نورها
نور الضحى ، وعطره ، وبهاؤه
ومحلقة فوق الجزيرة ظلة
كالنسر أورق الجلال فضاؤه
ما زالت مصر عز فؤادها   يتحرر أمر يغلق فضاؤه
الحكم تلك الأرض كثر ساحة
لا تنقضي ، وتسبحت أنباؤه
ومشت على أرض الوجود جلالة
فيها من المجد العميق خلاؤه
[illegible] الأهرام [illegible]   [illegible] الطيبة عمره وبناؤه
[illegible] الروض المبارك ، والبيت
كالطير في أغصانها شعراؤه
[illegible]   حتى تقلب الربيع شتاؤه !

* * *

مواكب السهرات ، بل كثيراً ما نجد أن الآراء لا تتداول ولا تدار كفراشات الربيع الزاهية إلا في مجالس السمر والفرجة . فماذا تكون الحال لو وهب الله لنا جميعاً مقدرة سحرية على معرفة آراء هذه الملايين الكثيرة المختلفة الألوان والأزياء ؟

إن من نعم الله على الناس أنهم كما هم ؛ وهذا الشاعر الإسكتلندي الطريف إنما كان يطلب للبشرية عذاباً شديداً ، ولكن الله قد لطف بالخلق فلم يلب دعوته وأبقى على الناس حواسهم اللطيفة . فليس في الإمكان أبدع مما كان ، وخير للجميع أن يمضي كل فرد في حياته كما يوحي إليه طبعه بغير أن ينغص عيشته بمعرفة آراء الآخرين . ولا شك في أن بعض النفاق محبوب ومفيد ؛ لأنه يسهل معاملة بعض الناس لبعض . فإذا قال شخص لآخر : « نهارك سعيد » مع أنه لا يريد حقاً أن يتمنى له نهاراً سعيداً أو إذا قال له : « أشكرك لأنك تفضلت بزيارتي » مع أنه كان في أشد الضيق من زيارته لم يضر ذلك القول أحداً ، ولكنه في الوقت نفسه يسر السامع الذي يلقى التحية . وقد يؤدي مثل هذا القول إلى أن يبعث شيئاً من السرور إلى القائل نفسه لأن تكلف الجميل يوحي إلى النفس بالمعنى الجميل .

فينبغي أن نعيد النظر في الشعور السائد عند ما يسميه الناس عادة بالنفاق والرياء ، وحبذا لو أمكن أن نجد لهذه المعاني أسماء أخرى أكثر قبولا عند الناس فكثيراً ما كانت كراهتنا للمعاني والأشياء نتيجة لكراهة وقعها لبعض الأسماء .

محمد فريد أبو حديد

مَلِكانِ يلتقيانِ ، كلٌّ منهما ... كَرُمَتْ مناقبُه وجلَّ إخاؤه

بل هامتان ، كلاهما سيفُ الحمى ... وكلاهما عزُّ الشعوبِ فداؤه

بالأمسِ جمعتْهما الحجازُ فعززت ... عهدًا لهُ ، وتكلمتْ أصداؤه

وتخشّعَ « الفاروقُ » في حرمِ الهدى ... يمشي وأنوارُ النبيِّ إزاؤه

أتى بمنطقةِ المليكِ وسيفِه ... فكفاه قربُ المصطفى وولاؤه

إن يعشقِ المجدَ العريقَ فسيفُه ... ثبتُ المكارمِ والعلا آباؤه

ولقد بنى « عبدُ العزيز » « موئلًا » ... في الشرقِ ثم علاؤه وبناؤه

ملكٌ يحارُ على الخليفةِ قلبُه ... في العالمين [illegible]

من شدةِ الإيمانِ أشرمَ عزمُه ... ومن الشداد [illegible]

هو حارسُ الحرمين لم يَهِنِ الحمى ... إقدامُه ، وسنى السيوفِ مضاؤه

لا الجيشُ لم يوجِّهْ عليه عرينُه ... لهابُه ، أو روِّعتْ صحراؤه

* * *

يومَ اللقاءِ الخامس في المدى ... [illegible] صبغةٌ أضواؤه

الروضُ فيه تضاحكتْ أزهارُه ... والقصرُ فيه تجاوبتْ أنحاؤه

والجامعة أرسلتْ أبناءها ... يستبشرون ، كأنهم أبناؤه

مرحٌ تُكسّبه التجاربُ حنكةً ... وصبًى تشرّف في هدى آباؤه

وحقولُ مزهياتٌ طلابُها ... كالشمس قومٌ نضرةٌ عقلاؤه

يبنون للشرقِ الجديدِ وعهدِه ... فالشرقُ تُرجى بينهم نشأؤه

هذا الشبيبةُ أمسِ في أشبالِه ... ما زالَ من دمِ الفؤادِ فداؤه

* * *

يا حبذا في هذا الزمانِ ولو تشا ... وكلاكما فوقَ الشموسِ علاؤه

وبلغتُما حتى يرى شعبًا كما ... أملا دراري النيراتِ كفاؤه

وبنيتما للشرقِ بادرةَ نهضةٍ ... لم يَنتبهْ في أمسِه حلفاؤه

ومشيتُما بالفخرِ والأرجِ عابق ... [illegible]

الشرقُ إن لم تنصراه بقوةٍ ... متخاذلُ الخطواتِ قلَّ رجاؤه

والدينُ إن لم تأخذا بيمينه ... متثاقلُ الخطواتِ ماتَ رجاؤه

واللهُ لا يرضى لدينٍ قد ... في الأرضِ إلا أن يعمَّ لواؤه

فتعهّدا نهضةً روحيةً ... يبقى سناها خالدًا وسناؤه

عامر محمد بحيري

صاحب امتياز المجلة

ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الإدارة — ٩ شارع الكرداسي

تليفون — ٥٦٣٦٩

القاهرة

(٤) الأشعار الأندلسية

وأثرها فى الأشعار الأوربية

رأى المدرسة الأسبانية

ثم يمضى ريبرا فى المقارنة بين الأشعار الأندلسية الأسطورية والأشعار الفرنسية خطوة أخرى ، فيلاحظ أن إحدى الأساطير الرومانسية تزعم أن شرلمان طرد مرة من مملكته فى فرنسا ، فذهب يلتمس العيش فى بلاط أحد الأمراء المسلمين فى أسبانيا وزوج أخته ، وأن ملك المسلمين الذى يظهر فى ملحمة رولان هو على التحديد صاحب سرقسطة الذى يظهر فى قصة إزراقي ، وأن « أُمنت » أو « مُنتيل » الذى نراه فى قصة إزرق نراه فى الملاحم الخاصة بشرلمان تحت اسم Aumont وأَلْمت Olmont . ويلاحظ كذلك أن كثيرا من مؤرخى الأدب الفرنسى يذهبون إلى أن الأساطير الفرنسية كتبت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، أى فى عنفوان عصر انتقال عناصر الحضارة الإسلامية من أسبانيا إلى أوربا .

وكان منيندث بيدال قبل ظهور أبحاث ريبرا يقول : « عبثاً نحاول أن نجد فى أشعار الملاحم القشتالية آثاراً عربية » فكتب ريبرا ينبهه إلى أن ألفاظاً متواردة فى هذه الملاحم كالغارة algara والدليل adalide والقاضى alcalde والنفر almotar والطلائع atalaya وغيرها كثير يثبت أثر المسلمين وتأثيرهم فى صميم هذه الملاحم ، وأن الملك يختص نفسه بخمس الغنائم فى هذه الأساطير ، وهذه قاعدة شرعية إسلامية ، ولفت نظره كذلك إلى تحجب كثير من النساء فيها ، ولم يزل يناقش العالم الفيلولوجى الكبير حتى جعله يقول : « لا بد من الوصول إلى الأشعار القصصية الأندلسية (يسميها الموريسكية) ، والأشعار القصصية التى ظهرت فى نواحى الحدود الشمالية حتى نعثر على هذه التأثيرات الإسلامية التى يشير إليها ريبرا فى الشعر القصصى القشتالى » .

ويقول جنثالث بالنثيا مزيداً فى إيضاح نظرية أستاذه ريبرا « لا يمكن إنكار الأثر الإسلامى بأية حال : فإذا كان الناس لا يجازمون فى أنه قد وجدت — وقتاما — أشعار جرمانية استعملها القوط الغربيون ، فإن وجود أشعار أسطورية بين المسلمين الأسبان أمر أكثر احتمالا ؛ وإذا كانت أوصاف المجتمع التى ترد فى القصائد القشتالية تتفق مع أوصاف المجتمع الجرمانى كما يصفها تاسيتوس ، فإن وجود ملامح عربية فى هذه الأشعار أمر لا يقل احتمالا عن وجود الملامح الجرمانية . فالتكريم ، ووجود الثأر ، ... الجيوش ، وروح الانتقام ، ودفع دية القتيل ، وشعور الشرف المرهف ، كل هذه صفات أصيلة فى الخلق العربى . ونضيف إلى ذلك أن « السيد » عاش مع بعض ملوك الطوائف المسلمين (حتى اسمه ، هو ترجمة لفظ العربى سيدى) ، مما جعله يعامل المسلمين المنهزمين بكرم ظاهر كما يقرر بيدال نفسه ، ثم إن قصيدة السيد نشأت وتمت فى مناطق الحدود الشمالية ، كل هذا يجعلنا لا نستغرب وجود آثار إسلامية . فهل من المعقول أن الأثر الإسلامى فى الأدب الأسبانى يبدأ فقط فى القرن الخامس عشر بظهور ما بين أيدينا من الأشعار الموريسكية الشمالية مع أن المسلمين وجدوا فى هذه الحدود نفسها قروناً طويلة قبل ذلك ؟ » .

ومهما يكن من الأمر — يقول جنثالث بالنثيا مستطرداً — فإن الشعر الأسطورى القشتالى لا بد أن يكون قد قلد نموذجاً جرمانياً أو نموذجاً إسلامياً أندلسياً ، فأما النموذج

الطرماح فتقدم جداً، ثم إنه وصل أسبانيا معدلاً بتأثيرات رومانية حدثت على مر قرون طويلة، وأما النموذج الإصلاحي الأندلسي فقريب مرتبط بالشعر الأسباني وباختلاف الزمان والمكان.

— * —

ثم التفت ريبرا بعد ذلك إلى الأزجال الأندلسية ملتمساً فيها بعض البرهان على ما يقول، وله في هذا الميدان آراء طريفة لا بأس من تلخيصها، وربما لم يجد القارئ المختص بالدراسات الأندلسية الآن في هذه الآراء كثيراً من الجديد، ولكنه ينبغي أن يذكر أن ريبرا وصل إلى هذه الآراء سنة ١٩١٢، أي في زمن كانت معلوماتنا من الأدب الأندلسي الشعبي لا تعدو بضع إشارات من دوزي: قبل أن يطلع ريبرا على كلام أبي الحسن بن بسام عن مقدم القبري وأصل الأزجال قال في محاضرة سنة ١٩١٢ إنه لا يشك في أنه قد وجد عند الأندلسيين لون من الشعر الشعبي، وأن هذا الشعر الشعبي هو المفتاح الذي يؤدي إلى كشف كثير من النواحي المغلقة في حياة الأندلسيين وفنونهم؛ وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩١٥ قرأ في الفقرة الهامة من «الذخيرة» التي يقول ابن بسام فيها إن أول من نظم الموشحات في القطر الأندلسي هو مقدم القبري الضرير، وأنه كان ينظمها من أبيات قصار، وأن معظم منظوماته من هذا الطراز لم يراع فيها دقة النظم، وأنه كان يستعمل في نظمه ألفاظاً وعبارات مما يستعمله العوام: فكان يأتي بعبارة عامية ويجعلها مطلعاً لمقطوعته؛ ثم ينسج على منوالها شطرين صغيرين، من غير مراعاة كبيرة للقافية ثم يؤلف بيتين بالعامية على وزن وقافية جديدة يتبعهما بثلاث فقرات مماثلة الأولى في الوزن والقافية، وعلى هذا المنوال يمضي في صياغة موشحته العامية.

وجاء بعد مقدم سعيد بن عبد ربه ابن عم الشاعر المعروف فوضع أزجالاً بالعامية الصرفة وتلاه الرمادي فطوّر هذا النوع الشعري، ونسج على منواله كثيرون؛ ثم جاء أبو عثمان بن سعيد الحوت، وأخذ يلقي القطعات الشعرية المعروفة بالجالي، وارتفعت قيمة هذا النوع الشعري الشعبي حتى إن ابن هانئ نفسه وضع موشحات؛ ولكن الظاهر أن الموشحات كانت أسعد حظاً عند الشعراء، فلم يخل واحد منهم في القرن الخامس من نظمها والتبريز فيها، حتى إننا نجد ابن اللبانة يمدح الرشيد بن المعتمد صاحب إشبيلية في موشحة لطيفة، وأبا بكر شاعر المأمون صاحب طليطلة يبرع في نظم الموشحات وتذيع منظوماته على كل لسان في الأندلس، وكذلك يمضي أبو عبادة محمد بن عبادة [illegible] من مداح أصحاب المرية في موشحات رائعة.

ولبث هذا النوع من الشعر الموشح ومن الزجل أن [illegible] أهل الأندلس شيوعاً عظيماً، ووجد العوام في الزجل مطلباً من الشعر، فنبغ منهم كثيرون أخذوا يجوبون البلاد جماعات يتغنون بأشعارهم، ويسميهم الناس «الأصحاب»، وقد وصف المقري لنا هؤلاء الأصحاب بأنهم جماعات من الناس يميلون إلى اللهو والغناء والطرب، يبرعون في النكات والفكاهات، ويطوفون على الناس بأزجال فيها كثير من الفحش والمجون.

ونبغ في هذا الفن الزجلي كثيرون منهم ابن بقي الأبيض وأبو القاسم الخضري، وأبو بقي وهو زجال اشتهر بمجونه، ولم يقتصر الزجل على هذا الشعر الفاحش الماجن، بل شارك فيه كثيرون من أهل الوقار بأزجال لطيفة. وليس لدينا لسوء الحظ من هذا الإنتاج الزجلي الوافر إلا فقرات صغيرة وجزء كبير من ديوان زعيم الزجالين الأندلسيين أبي بكر بن قزمان الشاب، وسنخصه بالحديث التالي

(للحديث بقية) حسين مؤنس

من صور الماضي :

الشيخ مرسي

أو عجيبة القرن العشرين

عملاق مكشوف الصدر عريض المنكبين مفتول الذراعين قوي السواعد والبناء شرس الأخلاق ، تروع جهامته الأقوياء الأشداء رهبته وذيوع صيته في كافة أنحاء القاهرة ، فهو أشهر من الأشهر الحرام لكثرة الحروب في العنف وسرعة الغضب — تعرفه وزارة الداخلية كما تعرفه الحكمدارية والأقسام والبوليس وهو من نزلاء السجون الدائمين .

هبط من بعض قرى الأرياف حوالي سنة ١٩١٩ إبان النهضة الوطنية يرتدي جلباباً أبيض وعمامة ملفوفة كالحبل على شحاشتها ويلبس حذاء التوسع الجديد ويمسك في يده عصا غليظة — عكازة — من السنط ، جعل في نهايتها وقاية من الحديد جاعلها ما يشبه رأس الرصاص المصبوب — وقد ربطوا عند قبضته حبل متين حذر أن يختطفها من يده خصومه في مواقف الغضب والشجار .

ويحمل على كتفه زكيبة تلازمه مع العكازة ملازمة الظل للشيخ والعرض للجوهر والاسم للمسمى . وإنما دعي الشيخ لأنه ضرير مبصر فأدخل في زمرة الشيوخ ، وهو كما عرفناه لا يجيد حفظ الفاتحة بل كان يتلوها على لحن وسوء أداء مضافاً إليها فاتحة أخرى من تأليفه .

كان إذا غضب وقط عكازته بضربات أولية على الأرض بمثابة التنبيه ثم يدور بها يمنة ويسرة في سرعة فائقة وبقفلة عجيبة كأنما هو يحذر النواحي المتوسعة لخصومه فيسد الفجوة التي يتوقع البادئة منها ، ثم تقع الإصابة في الغالب على الأبرياء من المارة رجالاً ونساء ، فإذا ألم جندي البوليس بقف محض شهود المعركة ينتظر الإمداد والنجدة حتى إذا وافته القوة الكافية أحاطوا به وانتزعوا العكازة من يده وتضامنوا فوضعوه فوق سيارة نقل وربطوه ، وبهذه الصورة وحدها يتيسر القبض به للقسم ، وهي طريقة متبعة متفق عليها في كافة الأقسام والمخافر .

كان يغشى المطاعم والمركبات فإن جلس على أحد المقاعد استولى على ما يجاوره منها ووضع أمتعته عليها . ويتجاهل زوار المكان فيطلب ألواناً تتخم أربعة من ذوي البطون الخاوية ، ويأتي على آخر ما يجاء له به ثم ينهض فيغسل يديه ويستولي على الصابونة والفوطة ويمضي ، فإن طولب بردها والوفاء بثمن ما أكله استعمل عكازته ، فما هي إلا بضع دقائق حتى يدع المكان أكواماً محطمة ، وبعض الجالسين من الزبائن جرحى لا يجدون مخرجاً يهربون منه ، وعند ذلك الحيلة يحملون القاعد والنائد الفظ على [illegible] حتى رؤوسهم إلى انتهاء المعركة ، وهكذا كان [illegible] شارع سرة وفي كل جهة جولة في الأحياء الشعبية [illegible] ، تعرفه الجمهور وجعلوا له شبه أتاوة من ضرائب يتقاضاها في شتى الطرق والمسالك إن لم تكن من النقود فهي من تجارة الحي أياً كان نوعها يدخلها تحت ضيوف الزكيبة ، وهي مجموعة لم تظفر بها حقيبة في العالم تلتقي فيها الأضداد وتجتمع المتناقضات ، فهو بينما يدخل بها فطيرة أخذها من حانوت يضع فوقهما سمكة من آخر ثم قطعة من السمط وضربة من السكندرى وشيء من الحلوى والجبن وقطعة من الباذنجان النيئ ومثلها من الطعمية وكيس من الملح الناعم وسفن من السكر وهكذا . ثم هو لا ينفض عن الزكيبة غير كوب قديم أهدى إليه من أحد شيوخ الأزهر ، وهكذا حتى تمضي سحابة اليوم فتكون مشحونة بالأصناف يمتلئ في جوانبها مخلوقات من الذباب والصراصير وما إليها من أنواع الهوام .

والشيخ مرسي أن يفرض نفسه كشريك في جميع

خطوط الترام والسيارات بجزيرة الجزيرة فيبقى من أغاني الذاكر بلا قيد ولا شرط. ثم هو يشهد الولائم والحفلات والأفراح مدعوا من عنده، فإن حدث الولائم بوش مع الطاعمين وجلس معهم يحييهم كبعض أصحاب الدار، فيأخذ نصيبه أضعافا بالتحية لهؤلاء. فأما إن رفضت دعوته لنفسه والمداعبة مع المدعوين كان تعكير الصفاء وحدوث ما تخشى عواقبه أمرا لا سبيل مطلقا إلى تداركه.

ومر ذات ليلة بجهة الخليفة فسمع صوت قارئ، وعلم أنه مأتم لأحد الأعيان، فدخل وأسكت القارئ، وبدأ يقرأ الفاتحة بصوت جهوري على روح المرحوم ثم أخذ يطالب بأجر الفاتحة فخرج عليه خمسة قروش أثمانه على قراءتها.

وذهب ذات يوم إلى المحكمة الأهلية شاهدا على أحد اتهم بسرقة كاوتش عجلات سيارة، وأقسم أنه رآه حال ارتكاب جريمته، غير أن المحكمة لم تأخذ بقوله فوقف يحتج على الاستخفاف به فيما جاء … (?)

وكان ينتقد النظم والقوانين ويود لو … الحظ بانتخابه لمجلس النواب فيضع تشريعا جديدا للأمة يكفل لها السعادة والأمن والرخاء.

ظل هكذا على شهرته بالعنت والتحجر يطلب رزقه عن طريق العتو والإرهاب إلى أن دب الوهن في أوصاله فوهنت أعصابه وخارت قواه وبدأ يترنح في مشيته كالعتل النشوان، لكنه بقي على مظهره الأول حتى لا يشمت الجمهور بضعفه وتخاذله، فنظمت له كلمة رثاء في لغة شعبية وإليك بعض أبياتها:

كنت أشجع من أسد ... صرت أجبن من نعامه

***

تعمل إيه في كبر سنك ... في أمور الشعب منك
كل واحد راح يزقك ... زق والناس في كمد
وانت مشهور بالثلاثة ... صرت أجبن من نعامه

***

الـترموبي تركبه ... والي يتبع تعتريه
يضحك أو تسحبه ... شيخ وفي شكل الولد
محره لم تخشى الملامه ... صرت أجبن من نعامه

***

شعب زق البحر عازج ... وانت زق القرد عارج
والماكنه سوقها رايح ... بق فوق وانبك هدد
وانت أشهر من سلامه ... صرت أجبن من نعامه

***

الحياة في الناس وديعه ... وانت خالفت الشريعه
والبلاده فيك طبيعه ... القصد القرد الصمد
قبل ما تشوف القيامه ... صرت أجبن من نعامه

***

ما كدت أنشر كلمتي في مجلة النيل حتى قرأها له بعض رواد القهوة بالحسين، فقامت كرامته غضبه وعدها فاتحة … من الناس أحدث به ويفقده رهبته في النفوس … التيوز لا لصاحب الكلمة … المجلة ومن يتصل بها، واشتغل بالبحث عن مسكني حالا، وتفقد النواحي التي أتردد عليها أياما متعاقبة إلى أن توسط بعض أهل الحي الحسيني في الصلح بيننا على شريطة أن أكتب … في نفس المجلة وأن أدفع له في أول كل شهر عشرة قروش ترضية له واعترافا بقوته وشدة بطشه فدفعتها مرة واحدة ولم أعلن اعتذاري له، وأجهده البحث عني فلم يوفق لمكاني إلى أن هاجمته الشيخوخة وتجهمت له الحياة، فكنا نجمع له المعونة عن طيب خاطر، ولكن أمسى المسكين هدفا لعبث العابثين وسخرية الناقمين، فآثر التواري عن أوطانه منتحيا المجزرة حيث قضى أيامه الأخيرة بعيدا عن شماتة الجمهور وعيون الشباب، ولم نقف على شيء من أخباره بعد. هل كان للتركيبة والمكاوة ورثة وأعقاب بعده أو أصبحت مخلفاته لمتحف الآثار وصحف الأخبار.

حسين مظلوم رياض

العظمة ...

ما دامت العظمة تعلو على قدرنا ، كما يقول « مونتانى » فلننتقم منها بالحط من قدرها والتقليل من شأنها .

و « مونتانى » قد قال هذا القول وهو بالطبع يمزح .

وإنى لأعرف كثيراً من الناس ومنهم من سوف يشفق على ، ومنهم من سوف يهزأ بى . فهاأنذا أخوض لجة هذا الموضوع الخطير .

وإنى لأحمد الله ، وأرضى كل الرضا عن نفسى ، على أنه — سبحانه — قد خلقنى كما أنا .

وإنى لأعترف أنى أحب التواضع فى كل الأمور . فأنا أرضى بضيعة صغيرة تدر على الخير القليل .

وأنا أرضى ببيت صغير يؤوينى . وأنا أرضى بأصحاب قليل عددهم . وأنا أرضى عادية ثابتة فى الساحة .

وإذا قدر لى أن أقع فى شرك الحب [illegible] أختار صاحبتى من صاحبات الملامح [illegible] لا من بين الساحرات الفاتنات اللواتى [illegible] بنات عبقر ...

ومن الناس من يأبى إلا أن يمشى فى الأرض مرحاً يختال فى ردائه وملء إهابه الكبر .

وإذا تكلم لوى شدقه للتفصح . وهو فى اختيار خدمه لا ينتقى إلا من لهم جثث ضخام .

وهو فى انتقاء أدوات المائدة لا يختار إلا الصحاف التى جاوزت الحد فى الاتساع .

وإذا مشى إلى جانب رجل طويل مط عضلاته وارتفع بقدميه حتى يبدو طويلا ليكون — فى نظر نفسه — رجلا عالى الكعب عالى القدر ...

هذا ما وصف به سنيكا (أحد بلغاء الأدباء الرومانيين وقد توفى عام ٣٩ بعد الميلاد) هذا الصنف من الناس المولعين بالعظمة الخارقة الكاذبة .

هذا الصنف من الناس — على منزلة جهده وقصر وسائله — لا يرضى عما دون النجوم مقاماً ومستقراً .

وهو يقول لنفسه : — إذا أنا بلغت مكان كذا ، إنى لسعيد . حتى إذا بلغ ذلك المكان همت « نفسه » بتطلب المزيد . فإذا بلغ القمة كان عرضة للسقوط من أعلى الجبل .

ولكنه — كما تقول الأسطورة — لن يستطيع أن يظفر بالطمأنينة ومكانها فوق مكان القمر — كما تقول الأسطورة أيضاً .

وقد قيل إن الرواد الأولين من الناس قد أرادوا — فى محاولة ملؤها الشجاعة والجرأة — أن يقيسوا السماء ، وظنوا أن الوسيلة لبلوغ ذلك أن يركبوا الجبال فوق بعضها ، فلما بلغ ما ركبوه جبالا ثلاثة قدروا أن لم يبق إلا جبلان [illegible] ثم برق البرق وقصف الرعد فدكت الجبال دكا ، وباء أصحابها بالخيبة الكبرى .

(فليس) [illegible] العظمة كائنة ما كانت ليست لها حقيقة وجودية ، إنما هى من نسيج الخيال ، وهى مسألة نسبية لا يمكن أن تقاس إلا بطريق المقارنة .

فأنت ترى أن ليس هناك وقت الصبح ، ووقت الظهيرة ، ووقت الغروب ، إلا بالقياس إلى بعض البلاد وليس بالقياس إلى جميع البلاد .

فكل شىء تافه وحقير ، وكل شىء عظيم وجليل . بالقياس إلى شىء يقارن به ويقاس عليه .

فهناك قرية فى الهند أو فى الصين قد أكون فيها أنا رجلا عظيما وقد أجد من يخلع على شبهاً بقيصر .

ووجه الشبه أننى أصبحت أول رجل فى تلك القرية .

وإنجلترا — مثلا — اسمها بريطانيا العظمى ، وقد سميت كذلك بالقياس إلى غيرها من العالم ، أقل منها مساحة ولكنه يشاركها الاسم .

فإذا قسنا بلاد بريطانيا العظمى ببلاد الصين صغرت

مشعل الحب الالهى ..!

هى قصة طريفة حقاً .. حكى فيها كاتبها الإنكليزى عن نفسه وعن أخيه .. حكى قصة حياتهما ! فراعى أنها جمعت إلى جمال العرض روعة التصوير، ويبرق فى أسلوبها الشائق الجذاب، ومداخلها اللطائف الخفاق، والصدق الذى يشيع فى ثنايا سطورها فيكسبها حياة، ويسكب فى عروقها حرارة .. !

قال الكاتب : « .. كان جميلا حقاً ذلك البيت الذى نشأت فيه .. كان يتوسط مزرعة كبيرة يمتلكها أبى، فكانت شرائط الحياة الصحية متوافرة فيه .. كما تمتعت بثروة كبيرة من فيض الطبيعة المتدفق : الشمس الساطعة، والهواء النقى العليل، وألحان الطيور الشادية، ولون المراعى الأخضر الجميل، والطلاقة .. الطلاقة والانسجام اللذين يتميز بهما ريف انكلترا العظيم .. !

ولكن .. ماذا كانت تجدينا هذه الثروة الطبيعية ؟! لقد كنا فقراء بنفوسنا .. أنا والآخرى .. كان أبواى كذلك يقولون إن النفس الرحبة المتألقة بالحياة هى التى تخلع على الطبيعة أكثر جمالها ؛ وهى قولة بالغة الصدق، أحسب أنى جربت صدقها من طريق معكوس .. لقد كانت نفوسنا الفقيرة تسلب الطبيعة جمالها وتخلع عنها نضرتها ورواءها .. !

أجل .. كانت ظلال نفسى الحزينة تخيل إلى أن كل شىء من حولى يبكى ! كنت أستمرئ الكآبة

وكثيراً ما كنت أنطلق فى الليل البهيم سادراً لا ألوى على شىء، فأحس وقر الظلمة الرهيبة، وأستشعر كوابيس أحلام اليقظة المزعجة تخنق روحى، وتثير فى حنيناً غريباً إلى الإجهاش والبكاء المر ! أما أخى .. فقد شاء قدر رحيم أن ينتزعه من أبويه إلى هذه « الجنة » التى هيأها له عمى ! لقد كان زفاف مقدمه .. فما أطل بطلعته المشرقة، وصافح أديم وجهه الطرى أولى نسمات الحياة فتح له عمى أبواب جنته ؛ وقال له : « ادخل .. ادخل ملوك العزم والطمأنينة .. إنها جنتك الخالدة ! » ولم تكن هذه « الجنة » سوى « قلب » عمى .. ذلك الملك الكريم الذى عرف الحياة حبًّا خالصاً، وتجاوب أرواح .. !

كان عمى يطلب الولد ويلح فى طلبه .. ولكن الصلاح الأعوام كان يضيق من فسحة هذا الرجاء شيئاً فشيئاً .. حتى كان ذلك اليوم المشئوم .. يوم أن قبض الله روح زوجته .. وغدا عمى وحيداً .. !

كان يحبها .. بل كان يعبدها ، فآلى على نفسه ليسكنن فى جوارها بقية حياته .. لم يكن يعتقد أنها ماتت ، وإن كان سلم أنها ماتت بالجسد .. وكثيراً ما كان يقضى عشاءه بهمسة قدسية كنت أحار فى اكتناهها ، ثم لا يلبث أن يقول فى صوت متهدج النبرات : « إنى أحببتها وإياها .. إنى أراها .. إن الأرواح لا تفنى بالبلى ولا تموت ! »

ولما أنجب أبى ولده الثانى — أخى — انطلق الحنين من أشجان عمى ، وكانت له عند أبى رجاوة : أن يضم أخى إليه ؛ فأبى والدى — إزاء إصراره وتشبثه — أن يفجعه فى أخريات أيامه ، وتطيب خاطره ، فقالا : « إنه ولدك منذ الساعة .. خذه إليك يا صاحبى ! » .

وانتقل الوليد الصغير إلى « جنته » .. كانت « قلب » عمى .

وبطايا النطق وتوارت فى الحجاب .

وبلاد الصين قسم صغير جداً من الأرض إذا قيست بمساحة الأرض كلها .

وعالم الأرض صغير جداً إذا قيس إلى العوالم الأخرى التى لا عدد لها ولا حصر .

(من الإنجليزية) مبارك ابراهيم

ومنذ ذلك اليوم وتقطعت بيني وبين أمي وشائج الاتصال !.

* * *

كانت أمي عصبية المزاج .. تمثل « المرأة » في تقلبها وعنادها ولجاجتها ، وكان بها دائماً شعور الطائر الذبيح قلق دائم ، واضطراب ، وانفعال لا يدرك لهما نهاية ! وكانت تجمع في أخلاقها النقائض كلها ؛ فهي تارة شرسة جموح ، تهدد بالوعيد ، وتنذر بالويل ، وتقذف بالحمم ! وأخرى لينة عطوف ، في هدوء الحمل الوديع ، تسرف في بذل حنانها وعطفها ، وتغالي في البذل !.

وهي حيناً باكية ، وأحياناً متباكية ، وتراها ضاحكة عابثة في أقل الأحايين ! أما أبي .. فقد كان رجلاً مريضاً بالعقل وبالجسد وبالروح ! أحب في حداثته .. وعشق في صباه .. وهام في أكثر من امرأة أكثر من مرة .. وغاص في اللهو وغرق فيه إلى أذنيه ! عرف الليالي الحمراء وعرف بنات الهوى الرخيص وأبناء الطرقات ... المشهورة من عقله ومن كيانه ومن [illegible] ... في نفسه كل تقدير للقيم .. أفقدته اتزان الرجولة ورجحان العقل .. سلبته راحة البال .. نشبت أظفارها في أغوار ضميره وصيرته عبداً للهواجس والأوهام والأضاليل .. جنحت به إلى نزوات الاستبداد والجور والأخذ بالثأر ، فصار لا يتغاضى عن هفوة .. ولا يفلت فريسة ، ولا يرضى أن يسكت على ضيم .. !

... ولم نكن أغنياء .. كما أننا أيضاً لم نكن بالفقراء .. كنا في حال وسط بين الشدة والرخاء ، وكنا نستطيع أن نحيا وأن نتنفس سعداء ، لولا أن نفوسنا كئيبة رغم شوقها !.

وهكذا سلخت حياتي كلها ضحية هذين الوالدين .. لم أعرف قط طعم السعادة .. لم أذق أبداً لذائذ العيش .. لم أجد فرداً يحنو علي .. لم أجد صدراً يضمني إليه .. لم أرقلباً يخفق من أجلي .. لم أجد نفساً سليمة تحاور أحاسيسي العالية الرقيقة ! كنت أكبت مشاعري في أغوار نفسي ، كنت أطوي صدري على ثورة عاتية تضيع في مسارب كياني .. كنت أحيا على مثل الجمر المتقد يشوي مهجتي ويقرض أعصابي !.

* * *

وشب أخي .. عرف الحب ... وشما أطايب الحياة الندية .. عرف أضواء الروح ، واستشعر اضطرام النفس بغرائد الأحاسيس .. ذاق حلاوة الفيض الإلهي ، واقترب من ينابيعه الثرة ... أمده حب بصوفية عنيفة مهدت له أسباب الاتصال بالروح الأعلى ، فاستقامت فطرته واعتدل زمامه وصار في الحياة رجلاً كريماً .. !

... لقيني ذات يوم .. فانفتح له قلبي ، وبثثته من [illegible] ... حتى رؤيته عيراتي ! عرف همومي ... وغاص إلى [illegible] ... فحاول — جاهداً — أن يقوم انحرافي [illegible] ... شرودي واضطراب أعصابي .. ولكنه

كان حريصاً على الا يتكلم عن أحداث القضية الثائرة .. ولكن ... هيهات ! .. ثم غاب عني — كالطيف — بضع سنوات .. رحل إلى فرنسا .. كان رسائله دائماً وهذات في كل سطر يخطه لي على الكتمان من تاريخ آلامي .. ووردت منه ذات يوم رسالة أنهى إلي فيها أنباء زواجه .. ومضى عام .. حتى يذكر أنه قد أنجب غلاماً جميلاً .. طفلاً يتمثل في قسماته طهر حوارى الجنة !

* * *

وهذا هو « جود » الصغير الآن إلى جانبي بذات كآبته العزيزة ، ويبث أنغام السعادة في بيتي المنزل التعس ، بعد أن غيب القبر أبويه إثر حادثة — لا أريد أن أطيل الوقوف عند ذكراها المرعبة ! — ذهبا ضحيتها ، وأقبل « جود » رمزاً للحب .. عنواناً للفيض الإلهي الذي تفجر في قلب

محمد على الكبير

وقراءاته التاريخيــــة

لعل أهم فائدة لعلم التاريخ أنه صورة ودراسة لتجارب الإنسان في عصوره الماضية، لهذا نعرف من كبار الملوك والأمراء والقادة شغفهم بقراءة التاريخ، وخاصة تاريخ أمثالهم السابقين، والأمثلة كثيرة لا تعوز الباحث.

وسنختار منها اليوم شخصية محمد علي الكبير، ومدى اهتمامه بقراءة التاريخ، لنحاول إحصاء الكتب التي قرأها ونبحث نوعها، فقد يكون لهذا البحث فائدة لمن يحاول دراسة شخصية هذا العاهل العظيم ومقوماتها الثقافية.

فلا شك فيه أن الكتب التي يقرأها أي إنسان أثرها في تكوين شخصيته، وتوجيه ميوله، وتكييف أعصابه لا يقل عن أثر الوراثة أو المدرسة أو البيئة أو الأصدقاء... الخ.

أفاد محمد علي من علم التاريخ فائدة كبيرة. فقد كان يرى نفسه — وهو منشئ دولة جديدة، وصاحب سياسة إصلاحية جديدة — في حاجة إلى أن يقرأ ويدرس تراجم أمثاله من القواد والملوك والمصلحين ليفيد من خبراتهم، ويتجنب أخطاءهم. وإنا لنرى أنه أفاد من هذه القراءة حقا، وهذا هو الفارق الكبير بينه وبين القائد العظيم نابليون، وكلاهما من أبناء عصر واحد، ومن غمار الشعب، وصلا إلى العرش بجهودهما — وخاصة الجهود الحربية — ولكن بينهما تاريخ مجيد في الإصلاح الداخلي، غير أن نابليون لم يقدر قيمة القوة التي وقفت في سبيله، فلم يعترف بالهزيمة، فقضت هذه القوة عليه وعلى ملكه. أما محمد علي فقد ناضل حتى أيقن أن لا فائدة من النضال، فخضع للحكم، وقبل ولاية مصر مضطرا، وبهذا احتفظ لنفسه ولأسرته بالملك.

يحدثنا رفاعة بك الطهطاوي في كتابه «مناهج الألباب»: (تعلم القراءة والكتابة في أقرب وقت، وعمره نحو الأربعين سنة أو ما يزيد على ذلك، جبرا لما فاته في زمن الصغر وتداركا لما يزيد في مجده في زمن الكبر، فرغب في مطالعة التواريخ، ولا سيما تواريخ الفاتحين: كتاريخ اسكندر الأكبر المقدوني، وتاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الروس — أي الموسكو — وتاريخ نابليون الأكبر، وغيرها من التواريخ المترجمة إلى التركية، مع المواظبة على الاطلاع على ما في الكازيطات الافرنجية التي كانت تترجم له. وكان صاحب فراسة، إذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر إلى حركاته وإشاراته مقصده، يستشير العقلاء والعلماء في حل أموره ....)

ويبدو أنه كان أكثر شغفا بتاريخ الاسكندر وقراءته. يقول رفاعة بك في نفس المرجع: (ولما كان محمد علي يحس من نفسه بأن عزماته اسكندرية، كان مترلعا بقراءة تاريخ اسكندر، ومنكبا عليه؛ وشبيه الشيء — كما يقال —

عمي، وتسرب إلى جوارح أمي، وسرى في جسمه ريحان روحي!

وإني لأحاول الساعة أن أمثل له حنان أبويه العظيمين مجتمعين.. عم أبيه وأبيه — وأحس في ملازمته فرحة.. افتقدتها طوال حياتي الماضية، وأستشعر قوة ما شعرت بها يوما قط.. ذلك أني أعلم الساعة علم اليقين أن مشعل الحب الإلهي قد انتقل إلى يدي وجعل الرب الإله مني أمينا عليه!

ذلك المشعل الذي سلمه عمي إلى أبي، فاستلمته من أبي بدوري، وسأظل محافظا عليه.. حتى يجيء ذلك اليوم الذي يتلقاه من يده «بيو» الصغير ليلقي النفوس البريئة الطاهرة — على وهج شعلته المقدسة — أسمى دروس المحبة وأرق أنغام الصفاء..!

(مصر الجديدة) عبد العزيز الكرداني

منجذب إليه، وفي الحقيقة كان بينهما من جميل الصفات والشمائل ما شهدت به الشواهد، ودلت عليه الدلائل).

قال محمد علي للدكتور بورنج (Bowring) في حديث له: (لقد أخبرني الكولونيل دوهامل (C. Duhamel) أني أصبح رجلا عظيما إذا قرأت التاريخ، وألممت بالألفاظ اللطيفة التي يمكن أن أعثر عليها في الكتب، ولكنني الآن لست رجل ألفاظ، بل رجل أعمال ...). ثم عاد فقال في نفس الحديث: (لقد نصحني الكولونيل أن أدرس التاريخ لأتعلم فن الحكم، ولكنني وصلت سناً لا تسمح لي بدراسة التاريخ؛ لقد كتب إليّ والدي يطلب تعليماتي عند ما أحاطت به المصاعب، غير أني رأيت أن خير تعليمات هي أن أذهب بنفسي، وقد سافرت إلى يافا، وأخضعت الفتنة حالا، وهذا هو الحكم العملي).

هذه هي خطة محمد علي في الحكم: العمل لا الكلام، غير أن تاريخه يثبتنا بأنه لم يهمل هذه النصيحة، بل إنه أقبل على كتب التاريخ والتراجم [illegible] من عصره، ووازن بين هذه النصائح.

وإذا كانت الكتب العربية خالية من الحديث عن تاريخ الدول الأوروبية التي يحاول أن ينهج نهجها في الإصلاح، ومن الحديث عن قواد وملوك الغرب الذين يحاول أن يترسم خطاهم، فقد أمر بأن تترجم له الكتب التاريخية من اللغات الغربية والإيطالية والفرنسية إلى لغته الأصلية التركية — أو إلى اللغة العربية —، فترجمت له كتب في سيرة النبي محمد، وفي تاريخ الإسكندر ونابليون وكاترين ملكة الروسيا، وترجم له تاريخ إيطاليا، وتاريخ فرنسا ... الخ ... الخ.

وفيما يلي بيان تفصيلي لما ترجم له من هذه الكتب، فقد ترجمها جميعاً موظفون يجيدون الفرنسية — أو الإيطالية — والتركية، وهم مجموعة عجيبة، فبينهم السوري، واليوناني، والتركي، وبعض هذه الكتب قد طبع — إما في مطبعة بولاق في القاهرة، وإما في مطبعة سراي رأس التين بإسكندرية —، والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً ينتظر من يعنى بنشره ودراسته:

١ — ترجمة «مظهر التقديس بخروج الفرنسيس» تأليف المؤرخ المصري الكبير، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، ترجمه من العربية إلى التركية السيد أحمد عاصم أفندي، وفرغ من ترجمته في غرة ربيع الأول ١٢٢٥ (٦ إبريل ١٨١٠)، ولا يزال هذا الكتاب (الأصل العربي والترجمة التركية) مخطوطاً في دار الكتب الملكية بالقاهرة، تحت رقم ٨٨٥٤.

٢ — «الأمير في علم التاريخ والسياسة والتدبير»، تأليف «مكيافلي»، ترجمه من الإيطالية إلى العربية الأب رفائيل أنطون زاخور راهبة، ولا تزال نسخته المخطوطة — بخط المترجم[1] — محفوظة في دار الكتب الملكية تحت رقم ٢٣٥ تاريخ. وقد أمر محمد علي كذلك أن تترجم له مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية ليقارن بينها وبين كتاب الأمير، وله رأي طريف في تفضيل «المقدمة» على «الأمير».

٣ — «التنظيمات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العثمانية»، تأليف «الأمير قوجه مصطفى بك الكوزوجه لي» — قائم بغداد ومن أصحاب السلطان مراد خان الرابع —، ألفها وقدمها له حين وقع الاختلال وظهرت القلق في أوائل سلطنته؛ ترجمه إلى اللغة العربية عبد الله أفندي عزيز بن خليل — الكاتب والمترجم بديوان الخديو بإسكندرية —، وكتب له مقدمة في صورة «عرض حال»، ورفعها إلى محمد علي باشا؛ أتم ترجمته في سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ ـ ١٨٢٦)، ولا يزال هذا

(١) فصلت الكلام عن هذه الترجمة وعن المترجم وجهوده في كتابي الذي يطبع الآن عن «تاريخ الترجمة في عصر محمد علي».

الكتاب مخطوطاً — ومعه الأصل التركي — في دار الكتب الملكية .

٤ — « قريمه تاريخي » ، تأليف المؤرخ الفرنسي كاستزا Castera وهو كتاب في تاريخ الامبراطورة « كاترين الثانية » وبه مقدمة قصيرة عن تاريخ الروسيا ، ترجمه من الفرنسية إلى التركية « يعاكوفاكي أرجيروبولو » الوطف والترجم بالديوان الخديوي ، وقد طبع في بولاق في جزء واحد ، في سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) ، ثم أعيد طبعه في سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) تحت عنوان : « ايكنجي قريمه لم روسية اميرا ترجمه سنه تاريخي » ، بعد أن راجعه وصححه سعد الله آمدي افندي .

٥ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، وهو مذكراته التي كتبها بنفسه حين كان منفياً في جزيرة « سانت هيلانة » ترجم من الفرنسية إلى التركية ، وطبع في بولاق في سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) ، ولم أعثر على اسم مترجمه .

٦ — ترجمة « سير الحلبي » وهو موسوعة السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، ترجمها من العربية إلى التركية « الشيخ أحمد بن افندي » ، وطبعت في بولاق في سنة ١٢٤٨ (١٨٣٨) .

٧ — « ترجمة تاريخ دولة إيطاليا » تأليف المؤرخ الإيطالي « بوتا Botta » ترجمه إلى اللغة التركية عبد الله افندي عزيز بن خليل وحسين افندي ، الكاتبان بالديوان الخديوي ، وطبع في مطبعة سراي رأس التين بالسكندرية سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٨ — « تاريخ نابليون بونابرته » ، تأليف الدوق دي روفيجو Duc de Rovigo ترجمه من الفرنسية إلى التركية الترجمان السابقان — عبد الله افندي وحسين افندي — وطبع في مطبعة سراي رأس التين بالسكندرية في سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٩ — « سفارت نامه رفاعة بك » ، وهو رحلة رفاعة إلى باريس ، ترجمها إلى التركية — بأمر محمد علي — الوالي رستم افندي باسم « المرتحالي » بالدائرة السنية الخديوية وطبع في بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

١٠ — « شرح قصيدة البردة » ترجمه من العربية إلى التركية أحمد افندي مصطفى ، وطبع في بولاق سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤١ م) .

هذه هي الكتب التاريخية التي ترجمت في عصر محمد علي ، وبأمره ، إلى اللغة التركية ، تبين في وضوح اتجاهه نحو تثقيف نفسه ثقافة تاريخية واسعة . ونستطيع أن نضيف إليها ما ترجمه[1] مترجمو الألسن إلى اللغة العربية من كتب كثيرة في تاريخ أوربا في عصورها المختلفة ، وتاريخ فرنسا ، وبطرس الأكبر ... الخ ... الخ ، في أن كثيراً من هذه الكتب قد ترجم إجابة لرغبة محمد علي ، وأنها كانت تقرأ له ، أو تعرض عليه .

جمال الدين الشيال

(١) انظر الفصل الخاص بهذه الكتب في كتاب « رفاعة الطهطاوي » ص ١٠٠ — ١٠٦

بين المسموع والمقروء

العلم إلى التوحيد سائر

ولست أقصد بالتوحيد توحيد الله . ولو أنى قصدت إلى هذا ما كذبت ، ولا كذب العلم ، ولكنى أقصد بالتوحيد توحيد العالم . وتوحيد الشعوب ، وتقارب الأمم على أى درجة كان هذا التوحيد وهذا التقارب .

وأول ما يتجه الفكر ، إذا ذكر العلم ، وذكر تقارب الشعوب ، يتجه إلى ما صنع العلم لوصل ما بين الأمم ، أرضاً وبحراً وهواء ، بالقاطرة ، والباخرة ، والطائرة ، وأمر هذا معروف مشهور .

ولكن التقرب قد يكون بالأجسام وقد يكون بالنفوس . وقد لا تلتقى الأبدان ومع هذا تلتقى الأرواح وتلتقى الأفكار وتجتمع القلوب .

وقد اقتحم العلم طفرة أخرى فى سبيل التقريب بين شعوب الأرض ، تقريب أرواح ، وتقريب أفكار وقلوب . فكان التلغراف فالتليفون السلكى فاللاسلكى .

والتلغراف من مواليد النصف الأول من القرن الماضى ، أى أنه صحب القاطرة البخارية أو كاد فى دخولها إلى الدنيا

والتليفون من مواليد النصف الثانى من ذلك القرن ، وعلى الأدق فقد ولد عام ١٨٧٦ ، أولدنا إياه مخترعه اسكندر جراهام بل بالولايات المتحدة . ومعنى هذا أنه لا يزال بين سكان الأرض من هو أكبر من التليفون سناً . ومما يقرأه القارئ ، للعبرة فى تاريخ التليفون جمود الجمهورين الأمريكى والإنجليزى الذى كان فى صدد إنشائه . وعلى الرغم من هذا الجمود فقد أنشأ أصحاب الأموال الذين ظاهروا جراهام بل ، أنشأوا أول سنترال بمدينة نيوهافن New Haven بأمريكا عام ١٨٧٨ ، وكان المشتركون واحداً وعشرين مشتركاً . والنجاح يدفع إلى النجاح . فلم يلبث التليفون أن عم شيئاً كل الولايات كلها ، وعمها بعد ذلك على ما هو معروف فى الأمم قاطبة .

وصل العلماء الأرض بالتلغراف ، ووصلوها بالتليفون . والتلغراف يحتاج إلى أسلاك . والتليفون يحتاج إلى أسلاك ، والأسلاك لا تصل إلا الجامد من الأرض ، فما بال البحار وهى فى وصل الأمم أشد خطراً . وبحثوا عن مادة عازلة تحفظ على الأسلاك ما يجرى فيها من كهرباء وهى فى جوف الماء ، ووقعوا عليها فكانت الصمغ الهندى المسمى Guta Percha . وبحثوا عن أضيق المياه ذوات الخطر فوقعوا على بوغاز دوفر . فى مياه هذا البوغاز أرسلوا أول سلك مائى يصل دوفر بإنجلترا بكاليه فى فرنسا ، وذلك عام ١٨٥٠ . وطيروا الإشارات التلغرافية بين البلدين فطارت . [illegible] السلك الآن ، أو هذا الحبل ، أو هذا الكابل كما يسمونه ، لم يلبث أن انقطع . وانقطع لضعفه ، فانصرفوا إلى تقويته ونجحوا . ثم حملوا هذا النجاح إلى شمال أوربا يصل مضايق الماء بين الدانمارك وبلاد السويد . وحملوه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى عام ١٨٥٧ حملوه إلى المحيطات — حملوه إلى المحيط الأطلنطى يصل أوربا بأمريكا . وانقطع الكابل منهم على عمق ألفى قامة ، فما استطاعوا له إصلاحاً . ثم عاودوا يصنعون غيره فخابوا . وبالصبر والمثابرة نجحوا بعد خمسة عشر عاماً . وبالعلم وبالفن كثرت الكابلات ، وكثرت الوصلات حتى زاد عدد ما وصل منها بين شمال أمريكا وأوربا على عشرين كبلا . وزاد ما استقر منها فى بحار الدنيا ومحيطاتها على ثلاثمائة ألف ميل طولا .

وتقدم العلم فإذا بالأسلاك لا حاجة بالناس إليها لوصل ما بينهم ، وإذا بمركونى فى عام ١٩٠١ يقف على جزيرة

نيوفوندلاند Newfoundland بأمريكا فيستمع لأول إشارة تعبر الأطلنطي من Cornwall بإنجلترا أي تعبر ألفاً وثمانمائة ميل (١٨٠٠) في لج البحر وبدون أسلاك .

ومن التلغراف اللاسلكي اشتق التليفون ، التليفون اللاسلكي أعني أنه بعد أن كانت تنقل بالتلغراف اللاسلكي الإشارات نقلت بالتليفون اللاسلكي الكلمات ، ومن التليفون اللاسلكي اشتقت الإذاعة اللاسلكية ، وكان طلوعها على الناس أول طلوع في عام ١٩٢٠ ، وكان طلوعاً على أمم الأرض بالخير والسعود ، لأن الإذاعة أطول وسيلة ، وأعرض وسيلة ، وأوسع وسيلة ، وأتم وسيلة اهتدت إلى اليوم ، لا في وصل الشعوب فحسب ، بل التعرف بها والتقريب بينها ، ووصل الجماهير بالجماهير على رغم الحكومات وعلى رغم السياسات ، وعلى الرغم من ذلك وخشية منها . وأنت في منزلك ... في الراحة ، تستطيع أن تطلع على آراء الأمم ... أخبارها وعلى أدبها ، وعلى علمها ... موسيقاها ، وعلى مجاريها وأفراحها . أول من وسيلة تعمل في الدعة ، في تقريب الأمم ، ثم توحيدها ، كهذه الوسيلة .

إن الوحدة العالمية لا تتحقق بتمامها ، ما دام أن لنا ألواناً مختلفة ، وألسنة مختلفة ، وأمزجة مختلفة ، وما دام أن هذا الاختلاف مرده إلى الأرض التي نرتبط بها ، والأجواء التي نعيش فيها ، وهي جد مختلفة ، جد متباينة . ولكن أهم أن يكون بين الأمم تقارب وتشابه يقترب من الوحدة في جواهر الأمور ، ولا سيما تلك الأمور التي ترتبط بسلام الأرض وبهناءة الحياة .

والعلوم والفنون ، مؤتلفين ، صنعا ويصنعان الشيء الكثير في تآلف الأمم . وأول خطوة في التآلف إنما بالطبع هو الوصل والتقارب . والتآلف لا يكون على التباعد وانقطاع الصلات أبداً .

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

ووسائل التقريب الجثماني من مواصلات أرض ، ومواصلات ماء ، ومواصلات هواء ، تمهد لهذا الفرق الكبير . والتقارب الجثماني مقدمة إلى التفاعل الفكري ، فالتقارب الفكري . ووسائل التقريب الفكري دون التقاء الأجسام تمهد لهذا الفرق الكبير أيضاً . وهذا صنعه الراديو حمّالا الأخبار والأفكار .

وكالراديو صنع السينما ، فحملت إلى بقاع الأرض صور الأمم وعاداتها وأساليب معاشها ، وحملت صوراً من فنونهم وعلومهم وأحسنات الزمان فيهم . وصارت السينما نافذة في الأمم ليس إلى أطرافها من سبيل ، يهرع الناس كل أسبوع إلى دورها ، فيتحملون منها محلا إلى ديار بعيدة وأمم بعيدة ، ومدائن بعيدة وقرى بعيدة ، يقضون في صحبة أهلها الساعتين والثلاث ، يدخلون في بيوتهم ، ويرونهم في مطاعمهم ، ويرونهم في عملهم وفي بطالتهم ، ويشاهدونهم في حلهم وترحالهم ، ويطلعون على مجاري الفكر ويرونهم ويحسون خلجات قلوبهم . ثم يرخى الستار ، ستار السينما ، فيعود الناس من تلك الرحلات الطويلة البعيدة إلى مقاعدهم من دور هذه الصور ، دور السينما ، وكأنما صحوا من حلم طويل . والصحو يفتح باب النقد ، ويفتح باب التقليد ، وما ذكرت النقد إلى جانب التقليد إلا حفظاً للموازنة . لأن الواقع أن الذي يجري أكثره تقليد ، والتقليد هو الخطوة الأولى إلى التوحيد . وذلك أن الأمم التي تصدر عنها كل هذه الأشياء أمم أربع أو خمس هي مصدر المدنية ومصدر العلم ومصدر الفكر ، وهي متشابهات في العادات ، متجانسات في الثقافات . والأمم التي تستقبل هذه الأشياء أمم بادئة ناشئة . والحوض العالمي يصب في الحوض الوطني فلا يستطيع له رداً . وهذا الوضع عامل كبير في سبيل الوحدة إذا قدر لها أن تكون ،

وهو عامل قوي لم تستطع أمة كاليابان له دفعاً. فقد رأيناها على الرغم منها تلبس الملابس الغربية، وتتخذ العادات الغربية. حتى أذواق البناء لم يكن لها مندوحة من اقتباسها فما تكاد تفرق بين مدينة يابانية وأخرى أمريكية.

وتحمل الأخبار وتحمل الأفكار صنع العلم، وصنعت الصناعة التي هي وليدة العلم، وصنع الفن، أداة النشر العظمى، تلك أداة الطباعة. وصنع المطابع هائلة الجرم دقيقة الصنع، تصنع الكتاب الواحد في النفس الواحد، وتصنع من الصحف مئات الألوف في اليوم الواحد، ويجري الورق بين أسطواناتها بسرعة خمسين وستين ميلا في الساعة. وفي كل هذا دقة، وفيه سرعة، وفيه إرخاص، وفي الإرخاص تمكين لهذه الأوراق التي تحمل عصارة الذهن البشري أن تصل إلى أطراف الأرض بأرخص الأثمان. وإن اختصت الكتب بالخاصة من الأمم، واختصوا بها، يأخذون بها ويتأثرون، ويرسلون [illegible] الأرض [illegible] ويستقبلون، فقد اختصت الصحف بالجماهير [illegible] صباح مساء. وإن شئت مثلا لوحدة عالمية واقعة فتصور أمم الأرض على مائدة إفطارها، أو في الطريق صباحا إلى أعمالها، تجدهم منكبين على جريدة الصباح يقرأون ما فيها. وقد تكون لغة الجريدة العربية، وقد تكون الإنجليزية، وقد تكون الطليانية أو الفرنسية أو الألمانية، وقد تكون اليابانية أو الصينية أو حتى الحبشية، ومع كل هذا فهم يقرأون من أخبار العالم شيئاً واحداً، ومن حوادثه شيئاً واحداً، ومن خطب الزعماء ومن أقلام ذوي الأقلام شيئاً واحداً، تعاونوا على نشره في العالم واحداً ما هيأه العلم من أسباب.

على أن العلم فوق ما هيأ من أسباب وما ابتدع من وسائل، كان هو نفسه، وفي حدود ذاته، وسيلة للتوحيد كبرى، فما انبث في نواحي الأرض، وعندما انبث في حقل، أو انبث في مصنع، أو مصحة، أو مستشفى. ففي الحقل يدخل العلم بالتوحيد في معالجة الأرض وتسميد الزرع ومقاتلة الحشرات والآفات. وفي المصنع يدخل بالتوحيد، فالآلات والمكنات تبنى من نماذج هي في العالم كله واحدة أو متشابهة. وللتطبيب يدخل العلم المستشفى بأساليب من نتاج البحث واحدة. ومن نعم الله على العلم أنه لا يتصل بجنس أو دين أو عقيدة أو حزب أو لون. فهو أعمى لا يفرق بين الألوان، وهو أبكم لا يعرف اللغات، وهو أصم لا يستمع الدعايات. ومن أجل هذا كان مُرَحَّباً به في كل بيت وكل أمة، مأذوناً له عند البيض وعند السود، مسموحاً له في المسجد وفي الكنيسة، مكرماً عند أزرق العين وأحمره.

ويدخل العلم في المدارس والجامعات، في أي خط من خطوط العرض، وفي أي خط من خطوط الطول، فيمشي [illegible] ويطبع النظرة الواحدة إلى [illegible] النظرة التي لا تتأثر بالظروف الطارئة، ولا بالملابسات والأغراض. وإن كان العلم يدخل على الأمم بطرائقه العديدة فيوحد الزرع والغذاء، ويوحد الصناعة والكساء، ويوحد التجارة والبناء، ويطبعها كلها بأساليب المدنية هي من خلقه واحدة، فهو يدخل على العقول في المدارس والجامعات لما هو أخطر وآثر، وأفعل من وجهة الوحدة العالمية، وذلك بما يضفيه على تلك العقول من أساليب التفكير واحدة، ومن منهج تستعمله العقول واحدة بالتأمل في نظم الكون وقوانين الحياة.

والعلم قد يعمل على الوحدة المنشودة من طريق أخفى، وأحب أن أسميه طريق الرخاء. فاختلاف الناس واختلاف الأمم أكثره على لقمة العيش. فلو أن الأمم تركت العلم يعمل، وتركت العلماء أحراراً يدرسون ما هو أنفع وأجدى، ومهدت لهم سبيل التطبيق لخرجوا للعالم

بالكفاية من غذاء وكساء ومتعة ورخاء، فتزول بذلك أسباب العداء، وتزول أسباب البغضاء، وتجتمع الأمم تحت الغبطة والصفاء.

* * *

ومع كل هذا فلست أرى أن العلم بالغ مراده من توحيد الأمم وحده. لقد قلت إن العلم نبىء على الحياد، لا يتصل بنعرة وطنية، ولا نعرة جنسية، ولا نعرة مذهبية. ولكن العالم تعرقه اليوم هذه النعرات. والعلم لا حيلة له في هذه النعرات لأنها لا تدخل في اختصاصه. وإن تدخل فهو إنما يتدخل من طريق غير مباشر. فهو يتدخل لتثقيف العقول لتكون أقدر على الفهم وأقوى على استبانة الحق، وتعرف طريق الرشاد عندما تنبهم الطرق وتختلط الأمور.

وفي العالم اليوم، على الرغم من مظاهر المدنية، جهل كثير، وعاطفة قوية، وضيق في الأفق الفكري [illegible] إلا الأنانية. والأنانية إن أفادت سرعان [illegible] قتادها إلى الخسران. والأنانية تتبع الطرق [illegible] الحروب يساق كالدابة الذلول، لأن من خصائصه أن لا يرد طالبا. وهو كالفتى أعمى، أبكم، أصم، يستوى عنده سير في ظلمة وسير في نور، وسير في ليل وسير في نهار، وهو إنما يسوق لا يدرى من يسوقه ولا يأبه لمن يسوقه ولا إلى أين يساق. والأنانية التي تسوق العلم إلى الحرب تبوء دائما بالخيبة. فهي من أجل هذا أنانية جاهلة، أنانية الرأى القطير والنظر القصير. وقد بذل العلم مسخرا في هذه الحرب جهودا لو أنها بذلت في السلم لذهبت بأسباب الحرب وذهبت بأسباب الخصام.

ولكن الناس كما قلت، والشعوب، معظمها من الغباء كثير. وليس هذا غباء عقول، فإنما هو غباء قلوب. وليس هو ضلالا في المنطق ولكنه ضلال في العاطفة. وليس هو نقص في الفهم ولكنه نقص في الأخلاق وفي فهم واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان.

فالإنسان تقدم من ناحية واحدة هي ناحية العلم، ولكنه تأخر في نواحيه الأخرى لا سيما ناحية العقل والإحساس بالصفة، ناحية الخلق الإنساني الكريم.

وقد أنطقت الحرب في شدائدها المروعة زعماء الأمم عقائدهم عن عالم جميل رضى كانت جديرة بنطق الملائكة وأفواه القديسين. ثم ذهبت الشدائد فعاد الزعماء أشد ما يكونون بشرا، وأكثر ما يكونون على طيبات العيش [illegible]. وما كانت أقاويل الحرب إلا نزعات أباطيل.

[illegible] الذرية، وهي نتاج العلم الأخير، فقيل إنها ستوحد بين أمم الأرض، وقيل إن الأمم ستصاخ لصوت الحق تحت ظلها. وأنصتنا لصوت الحق فإذا هو صوت مشوب فيه الحق مرجا ومزجا. على أنه كيف تكون الوحدة على الخوف وعلى الإرهاب؟

إن العلم يعمل لتوحيد العالم، ولكن لا نجاح لأعماله، ولا أثر لجهوده إلا إذا تعقل الناس عقولا، وتطهروا قلوبا، وصفوا أرواحا، ودون ذلك جهود الجبابرة والزمن الطويل البعيد، ثم مشيئة الله من وراء ذلك.

أحمد زكي